

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الشفاعة والبعث
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص بعيد العرش المجيد

السنة الستون - العدد 425 شوال 1439هـ / يوليو 2018م

425

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الستون - العدد 425 شوال 1439هـ / يوليوز 2018م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما نعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا لعماله العكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد ونغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الإسلامية
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه

• الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.

• ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

• ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

التوزيع

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

ثمن العدد : 15 دھ

الخارج : 300 درهم

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمنية - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

يحتفل الشعب المغربي هذا السنة بالذكرى التاسعة عشرة لعيد العرش المجيد، وهي مناسبة تذكير روابك البيعة بين أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله وأيده، وشعبه المخلص فلما الله أمر حماية دينه وسياسة شؤونه، يندرج هذا السنة في سياق وطن وعالمي حافل بالمكاسب والانتصارات، أما المكاسب ولها تجلياتها فيما تحف من المشاريع التنموية والإصلاحات السياسية، والرفع من مستوى التنمية البشرية، والتكبير بالإجماع على الوحدة الوطنية، ونيل شرف ثقة الهيئات الحكومية.

أما الانتصارات فهي في حلب اهتمامات أمير المؤمنين نصره الله، وفي مفاصلها خدمة مصالح المواطنين الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أنها لم تحل بعد إلى الفكر المصلوب في ربك المسؤولية بالحساسية، وتلأ أمانة دعا الجميع إلى حملها ورعايتها.

فقد نبه حفظة الله على أنه ليس من المفضل ألا ترفى حصيلة المنجزات الوطنية إلى ما وصل إليه المغرب من مصداقية على المستوى الفاري والحولي، وإلى ما حففه من مصداقية وثقة لدى كبار المستثمرين ببلدنا.

إننا رسالة واضحة تذكر الجميع أن عيد العرش ليس مجرد ذكرى عابرة، بل هي مناسبة لحساسية الذات وتقييم المنجزات، والرفع من مستوى التطلعات، كما أنها فرصة لتأكيد اعتزازنا بمؤسسة إمارة المؤمنين الساهرة على حماية الدين وسياسة شؤون المواطنين.

لذا يسعد مجلة الدعوة الحق أن تخصص هذا العدد لذكرى عيد العرش المجيد، بما تعمله من مبادرات سامية ومعان رافية، تولى بيانها ثلة من العلماء والباحثين والأساتذة المتخصصين، إسهما منهم في الاحتفاء بهذا المناسبة الغالية على المغاربة أجمعين.

رئيس التحرير.

مفالات العلم



البيعة الشرعية أساس قيام الوحدة الوطنية

ذ. حسن عزوزي

رئيس المجلس العلمي المحلي لمولاي يعقوب

لا شك أن مقصد الشرع من إقامة نظام الحكم الإسلامي على أساس من ميثاق البيعة الشرعية هو تمكين المسلمين من القيام بشعائر دينهم وتنفيذ أحكامه في دولتهم باستقرار أوضاعهم الحياتية من جهة واطمئنانهم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وسيادة العدل والمساواة في مجتمعهم وجمع شملهم ورعاية مصالحهم إلى غير ذلك مما يشمل هذا المقصد الشرعي العام من فروع وجزئيات. ومن المعلوم أنه لا يمكن تحقيق هذا المقصد إلا في ظل إمام تسلم إليه الأمة مقاليد أمورها في إطار من العقد التبادلي الذي تترتب عنه التزامات على الإمام نحو رعيته وحقوق له عليه. ولذلك حرم الإسلام نقض بيعته أو شق العصا عليه أو التشويش على مهمته واعتبر من حاول ذلك مبتغيا للفتنة بين المسلمين مزعزا لاستقرارهم ومفرقا لجماعتهم، عاملا على تقويض الوحدة الوطنية لبلادهم فكان عقابه في الدنيا هو القتل وفي الآخرة هو العذاب الأليم كما هو مقرر شرعا.

ومعلوم أن سياسة الدين والدنيا قد ارتبطت في تاريخ الأمة الإسلامية برعاية مصالح العباد والبلاد وما يصلح شأنهم في الحال والمآل، ولذلك جرى بين العلماء والأمراء وأهل الرأي في أزمنة كثيرة نوع توافق على ما يحفظ الأمن الروحي والسياسي للأمة ويصون وحدتها من التمزق والخلاف ويجنبها إثارة الفتن الداخلية والخارجية¹.

البيعة الشرعية : إلزام والتزام

إذا كان نظام البيعة - كما هو مقرر - عبارة عن عهد وميثاق، فإن العهد يجب الوفاء به ولا يجوز التهاون فيه. إذ هو من الأمور الأساسية في الإسلام التي أمرنا الله بالتشبث بها مهما كانت الظروف

1 - دليل الإمام والخطيب والواعظ: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 2006 ص 42.

ومهما وضعت العقبات في الطريق قال تعالى "وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم"² وقال "ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجراً عظيماً"³

وإذا كان الأمر كذلك فإن البيعة وهي من أكد العهود وأوثق المواثيق تعبر عن مفهومي الإلزام والالتزام، إلزام المسلمين بالسمع والطاعة للإمام الحاكم وبعدم منازعته الأمر فمن نكث في شيء من ذلك بأن طالب مثلاً الإمام بالتخلي عن بعض سلطاته أو بأن يكون مجرد رمز للدولة فهو ناكث للبيعة، وفي مقابل ذلك التزام الإمام الحاكم بتطبيق الشريعة الإسلامية وسياسة المسلمين بالعدل طبقاً لنصوص الكتاب والسنة.

وهكذا، لا يمكن تصور البيعة بمفهوم العهد الخالي من الالتزام، إذ يتنافى ذلك مع مفهوم الحكم في الإسلام ويتناقض مع النصوص الواردة في معنى البيعة من حيث الالتزام المتبادل. وبالرجوع إلى كتب السيرة النبوية يتبين أن المرات التي تمت فيها المبايعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة ومتعددة وقد أخذت صيغاً مختلفة تجاوزت بنودها مع الظروف التي أملت البيعة ومع وضع المبايع "بفتح الياء" وما كان الإسلام ينتظره منه⁴، ومن أشهر البيعات يبعثها العقبة الأولى والثانية وبيعة الرضوان، ولكنها تعبيرات عن معاهدات تبرز صور الالتزام المزدوج والتمسك به من طرفي عقد البيعة. ومن أجل ذلك أثرت عن بعض الصحابة أكثر من بيعة لكونهم شهدوا أكثر من موقع حاسم تطلب تجديد البيعة والالتزام، ولذلك بوب الإمام البخاري للموضوع فقال: باب من بايع مرتين، وأخرج فيه أن سلمة قال: "بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة فقال لي: يا سلمة ألا تباع؟ قلت: يا رسول الله قد بايعت في الأول قال: في الثاني⁵. وقد أخرج مسلم في صحيحه حديث سلمة بن الأكوع مطولاً وفيه أن سلمة بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات يوم الحديبية⁶.

ومن بين ما يترتب عنه العقد التبادلي الذي يجمع الإمام برعيته التزام الإمام بحفظ الدين والدفاع عن تعاليمه ضد كل زيغ أو زلل والقيام بجميع ما يلزم ليبقى الدين محروساً والوطن محمياً

2 - النحل 91.

3 - الفتح 10.

4 - يراجع على سبيل المثال: سيرة ابن هشام 1/ 442 - 2/ 201 والرحيق المختوم ص 380-390.

5 - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من بايع مرتين، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب غزوة ذي قرد.

6 - صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد، رقم الحديث 132.

مع العمل على المحافظة على الأمن واستتباب السلم بين المواطنين لكي ينصرفوا إلى مصالحهم ويأمنوا على أرواحهم وأموالهم، وهو ما يتعزز أكثر بتحصين الثغور وحراسة الحدود، ومن شأن كل هذه الالتزامات تعزيز الوحدة الوطنية التي تعتبر من أبرز الثوابت الوطنية التي ترسخ مبدأ حب الوطن والحفاظ عليه.

فنظام البيعة ينطلق إذن من الحرص على الوحدة والجماعة وهو الحرص الذي أَلَحَّ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة مناسبات نبه فيها على أن "يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار"⁷ و"أيما رجل يفرق بين أمتي فاضربوا عنقه"⁸.

على أن الحرص على الوحدة نابع من أن هذه الوحدة قائمة على أساس ثابت وصحيح لا يمكن أن يتسرب إليه الشك والطعن. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم"⁹.

وتعد هذه الحقائق من البدهيات المعلومة من دين الإسلام بالضرورة، لأنها ثابتة بالأدلة القطعية فلا بد إذن أن يكون الإمام المبايع عارفاً بخطورة منصبه وكيف عليه أن يحفظ الدين ويسوس الناس على مقتضى الشريعة السمحة حسب الأوامر والنواهي. وما تجدد من الأحداث والوقائع فعليه أن يستعين على ذلك بالمشورة وما تم التوصل إليه فهو الحق عليه تنفيذه، وعل الناس اتباعه وطاعته فيه، فعن المسيب بن رافع قال: كان إذا جاء شيء من القضاء ليس في الكتاب ولا في السنة سمى صوافي الأمراء فرفع اليهم فجمعوا له أهل العلم فما اجتمع عليه رأيهم فهو الحق¹⁰.

والإمام بهذا وبفضل ميثاق البيعة الذي يجمعه برعيته يحقق هدفاً سامياً مطلوباً في كل دولة وهو تعزيز الوحدة الوطنية وترسيخ ركائز السيادة والأمن ووحدة التراب الوطني، فالمسؤول عن كل ذلك هو الإمام المبايع لأنه هو الممثل لجميع الأمة التي بايعته والمسؤول عن حمايتهم في نفوسهم ودينهم وأبنائهم وأراضيهم ووحدة كلمتهم.

7 - رواه الترمذي في كتاب الفتن من سننه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه رقم الحديث 2167 وراجع عارضة الأخوذني لابن العربي 27/5.

8 - رواه النسائي في سننه: باب "قتل من فارق الجماعة". رقم الحديث: 2982.

9 - رواه ابن ماجه في كتاب الفتن عن أنس بن مالك (ض)، حديث رقم 3940.

10 - ابن القيم: إعلام الموقعين 84/1.

وإذا تصفحنا التاريخ وجدنا أن أية أمة عاشت اضطرابات وفتنا وفوضى ما أنقدها منها إلا اجتماعها على بيعة إمام يحمي حدودها ويصون ثغورها ويسدد أحوالها. فالبيعة الشرعية أساس قيام الوحدة الوطنية وهي التي مكنت في الماضي كثيرا من دول الإسلام من البقاء والصمود ومنحتها السبل المؤدية إلى الرقي والازدهار.

مفهوم الوحدة الوطنية

تعتبر الوحدة الوطنية ركيزة من ركائز مقومات الوطن وأساسا من أسس تطوره وتقدمه وهو نتيجة تلاحم الشعب مع قيادته، كما أنها الأساس في استقرار الدولة ونمائها، يقوم عليها البناء الوطني السليم وتشكل هدف التنمية السياسية وغايتها الأولى. وهي تمثل بحق أهم الثوابت الوطنية وأكثرها إلحاحا وحيوية. إنها تبرز قصة الحضارة التي تتوالى فصولها مع تعاقب الحكم على البلاد مما يجعل من قيمة الانتماء الوطنية أمرا مسلما له جذوره التاريخية وامتداداته التي تشكل نظام البيعة لحمايتها وضمان استقرارها. وتعتبر الوحدة الوطنية قيمة من القيم الوطنية الخالدة التي يعمل الجميع شعبا وحكومة وقيادة على تقويتها والحفاظ عليها، فهي من مكتسبات الوطن ومعيار التميز والاعتبار.

وإذا كان القانونيون يعرفون الوحدة الوطنية بأنها اتحاد مجموعة من البشر في الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والهوية في مكان واحد وتحت راية حكم واحد فإن مفهوم الوحدة الوطنية في البلد الإسلامي الذي يستمد الحكم فيه مشروعيته من الإسلام يتجاوز المفهوم القانوني السائد وذلك باعتبار الدين مكونا أساسا من مكونات الوحدة الوطنية، كما أن راية الحكم لا يستظل بها أي حاكم وإنما يستظل بها إمام بايعته الأمة وفق الشروط الدينية المنصوص عليها، وهذا ما تتميز به إمارة المؤمنين ببلادنا التي تصطبغ بمجموعة من العوامل التي تعد من مسلمات الوحدة الوطنية، من أبرزها:

- (أ) قيامها على نظام البيعة الذي هو عقد حقيقي يتم بين الإمام والأمة يستمد منه لإمام سلطته وتترتب عليه التزامات لعل أبرزها التعاون بين الطرفين من أجل تحقيق الوحدة الوطنية
- (ب) استمرارها نتيجة تاريخ عريق يجسد روابط تاريخية عميقة ربطت عبر الأجيال أسرة حاكمة بشعبها وفق أبهى صور التلاحم والتوافق والتراضي.
- (ت) قيامها على وحدة المذهب والعقيدة والسلوك الروحي في استناد تام إلى الكتاب والسنة.

ث) تعزيز الأمن بالصورة التي تجعل البلد بمنأى عن الاضطرابات والفتن والفوضى. وتعتبر المحافظة على الأمن بجميع أشكاله مقوما مهما من مقومات الوحدة الوطنية.

ج) ترسيخ ونشر قيم المحبة والألفة والتسامح بين أبناء الوطن ونبذ مظاهر العنف والشقاق والخلاف.

ح) ازدياد التعلق بالوطن لازدياد الطمأنينة فيه، وهي الطمأنينة الباعثة على الإقبال على التعمير النافع وتحقيق الرخاء والازدهار للوطن. والنصوص الشرعية الدالة على أن محبة الأوطان جزء من الإيمان كثيرة ووفيرة نذكر منها ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر فأبصر درجات المدينة أوضع ناقته -أي أسرع بها- وإذا كانت دابة حركها"¹¹. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"¹².

مفهوم المواطنة

لا شك أن المعنى الفطري المتمثل في احتياج الأفراد إلى الاجتماع في جماعة هو المعنى الذي أسس الإسلام عليه بناءه في تدبير علاقات الناس بعضهم ببعض كقول الله عز وجل: (ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون)¹³ وقوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)¹⁴ ولتحقيق معنى الوحدة والاعتصام وعدم التفرق والتحزب بنى الإسلام اجتماع الناس على مراعاة الحاجة إلى إمام يسوس الجماعة بعد مبايعته وتفويض الأمر إليه، ولذلك استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم معنى مفارقة الجماعة في الحديث القائل "من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ميتة جاهلية"¹⁵ فمساكنة الناس بعضهم لبعض في اطار الجماعة ينشأ عنها مدلول المواطنة بما هي انتماء للوطن تترتب عليه حقوق وواجبات تذلل سبل المشاركة المجتمعية بشرط مراعاة القيم المعينة على التنمية ما يجعل المواطنة بناء على ذلك قائمة على كل من العناصر الآتية:

11 - رواه مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب: من أسرع ناقته إذا بلغ المدينة.

12 - فتح الباري لابن حجر العسقلاني: 727/3.

13 - سورة الروم، الآيتان: 30-31.

14 - سورة آل عمران، الآية: 103.

15 - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب لزوم الجماعة عند ظهور الفتن... رقم الحديث 1848.

(1) انتماء أساسه محبة الوطن الحاملة على الارتقاء به وحب رؤيته فوق سائر الأوطان من غير تعصب مانع من الانفتاح والتعرف على الغير مصداقا لقوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير¹⁶ فالانتماء الوطني يسمو على مختلف الانتماءات والولاءات الأخرى، فالوحدة الوطنية والانتماء الوطني كلاهما لا يتناقض مع التعددية بل يفرضها ويزدهر من خلالها على أن تجري هذه التعددية بمظاهرها وتفاعلاتها من خلال إطار يحترم سمو الهوية الوطنية على مختلف الهويات واحترام الانتماء الوطني والولاء للوطن من قبل جميع الأفراد والجماعات على اختلاف ولأئامهم وانتماءاتهم.

والوطن ليس مجرد خريطة ترابية فحسب، ولكنه - فوق ذلك - انتماء حضاري وتراكم تاريخي ونظام سياسي ومنظومة متكاملة ومنسجمة، والحفاظ عليه وتنميته - بهذا المعنى - هو حفاظ على الوجود الحضاري وتنمية له.

(2) مشاركة مجتمعية أساسها ملاحظة ما تتحصل به الكفاية فيما تتقوى به الجماعة فكل إسهام يخدم الوطن وتترتب عليه مصالح دينية أو دنيوية تتعين المشاركة فيه قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)¹⁷ فملاحظة معنى احتياج المصالح العامة دينية ودنيوية إلى تكاثف الجهود هو الذي لأجله جاء الإسلام بمحاسن التشريعات.

(3) قيم ناظمة للمواطنين، وهي قيم تسهم في تنمية الوطن، أساسها الإخلاص المنافي للانتهازية. والصدق المنافي للغش والخداع والتعاضد المنافي للتفرق والتشردم، ولذلك يقول العلامة ابن عاشور "لا يكاد ينتظم أمر الاجتماع كمال انتظامه ولا ترى الأمة عقدها مأمونا من انفصامه ما لم تكن مكارم الأخلاق غالبية على جمهورها وسائدة في معظم تصارييفها وأمورها"¹⁸.

آليات تحقيق الوحدة الوطنية

تعتبر الوحدة الوطنية من أهم الثوابت الوطنية التي تحظى بالأولوية على كثير من الاهداف والغايات الوطنية الأخرى، وهي تركز في مفهومها على ركيزتين أساسيتين:

16 - سورة الحجرات، الآية: 13

17 - المائدة: 3.

18 - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص 123

الأولى: الجانب المعنوي أو السيكولوجي الذي يرتبط بالمواطنين ووحدهم وتماسكهم أي ما يتعلق بتعظيم الروابط التي تشكل نسيج الانتماء وقوام اللحمة بين عناصره ومكوناته، وأساس هذه الروابط دائماً الانتماء وحب الوطن والرغبة في العيش المشترك.

الثانية: الجانب المادي القانوني الذي يرتبط بالأساس بوحدة الدولة وتكاملها وقيام نظم قانونية ودستورية ومؤسسية تكفل الحفاظ على وحدة الوطن وتماسك الشعب وترابط مقوماته.

من هنا تأتي أهمية الوحدة الوطنية في استقرار الدولة ونمائها. وأي مساس بها من شأنه أن يقوض السلم الاجتماعي وبالتالي تراجع عملية التنمية السياسية برمتها. وإذا كانت هناك اختلافات بين جماعات تنتمي إلى نفس الوطن لكنها تختلف في تكوينها وطبيعتها، فإن الأمر يتطلب توفير سبل التعايش في إطار من التسامح والحرية المسؤولة بين مختلف التكوينات والجماعات على اختلاف طبيعتها والولاءات التي تمثلها، وهذا الإطار من التسامح يستدعي حتما نبذ العنف والتطرف والتخلي عن أساليب الكراهية مع احترام الخصوصية والهوية الوطنية وما يمثله ذلك من أولوية تقدم على كافة الولاءات والانتماءات الأخرى في الدولة.

ولتحقيق ذلك التماسك والتكامل تبرز وسائل وأساليب متعددة تدور كلها حول تعميق الرغبة في العيش المشترك بين مختلف مكونات وقطاعات المجتمع والعمل على تلطيف حدة الاختلافات بين العناصر والشرائح المتنوعة بما يجعل التعدد والتنوع مصدر غنى وقوة وليس مصدر تهديد أو تقويض تعاني منه الدولة. ويمكن الإشارة إلى مجموعة من أدوات التنشئة وآليات تحقيق الوحدة الوطنية من خلال ما يلي:

أولاً: الأسرة، وتعتبر أهم المؤسسات الاجتماعية التي تنتج الوجدان الثقافي والتربوي عن طريق مجموع القيم والأخلاق التي تنشرها على سائر أفرادها وتلقنهم إياها على اعتبار كونها تشكل الآداب العامة الواجب مراعاتها والمقدسات الاجتماعية التي ينبغي احترامها والالتزام بها، والأسرة هي التي تتولى صياغة شخصية الطفل فتخلق لديه منذ طفولته أبجديات ولائه وانتمائه وأولويات توجه مشاعره وتشكيل وجدانه التي تنمو وتتطور لديه لتجعل منه المواطن الصالح الذي ينشده المجتمع.

ثانياً: الخطاب الديني

يعتبر الوطن وحدة منتجة تتداخل فيها عدة عناصر عبر التاريخ: لغوية ومعرفية وثقافية لكن يبقى الدين هو الساهر لها جميعاً تحت إمرة الإمام في نسيج اجتماعي واحد، لذلك فالخطاب الديني

هو الأجدر بحمل رسالة تعزيز الوحدة الوطنية بما يملكه من إمكانات روحية في التخليق بالتصورات والمفاهيم المنشودة. فالمؤطر الديني بما هو نائب عن الإمام في وظيفته الدينية عليه أن ينخرط في المحافظة على النسيج الاجتماعي للوطن ويعمل على تقويته وتنميته وتعزيز مفهوم (الرحم الوطنية) بما يدل عليه من وحدة النسيج الاجتماعي ووحدة الوطن.

ولا شك أن قيام المؤطر الديني بتعزيز الوحدة الوطنية والمواطنة بمرجعيتها الدينية يعتبر من أهم المعالم التي يجب أن تؤطر العمل الإرادي والتوجيهي في عصرنا، والوطن بما يصطبغ به من خصوصية ذاتية على كل المستويات العمرانية والدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية في حاجة إلى خدمة دائمة في هذا الجانب أي التربية على ترسيخ وتعزيز المفاهيم المرتبطة بوجود خصوصياته¹⁹.

ثالثا: الإعلام: لا تخفى أهمية الدور الذي يقوم به الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع في توحيد صفوف الأمة وتماسكها وترابط عناصرها خصوصا في وقت الأزمات، فضلا عن دوره في تعزيز وحدة الوطن وسيادة الدولة وسموها وحماية مقدساتها وأركانها الأساسية، ويتعاضد دور الاعلام في توجيه الشباب وتوعيتهم في مجال تعزيز التماسك الوطني وتقوية الشعور بالانتماء والولاء للوطن كولاء ذي أولوية على ما عداه من ولاءات وانتماءات.

رابعا: التعليم، حيث تعمل المؤسسات التعليمية بمختلف مستوياتها على نحو مهني ونظامي على غرس وتطوير قيم المواطنة وحب الوطن وخاصة في المستويات التعليمية الابتدائية والثانوية التي تركز على تربية التلاميذ على التثبث بالهوية الوطنية واحترام الانتماء الوطني والولاء للوطن وتنميته من خلال ترسيخ قيم الإخلاص والصدق والوفاء والتماسك ونبذ عوامل العنف والتطرف والخيانة والكراهية.

لذلك فالمؤسسات التعليمية التي هي بالدرجة الأولى مؤسسات تربوية تمثل الملاذ الروحي والمعرفي للتلاميذ وتقوم بتزويدهم بالقيم الدينية والوطنية الملائمة التي تدفعهم إلى الاعتزاز بالهوية الدينية والوطنية والتشبع بمبادئ الوحدة الوطنية مع القدرة على تمثلها وتعزيزها.

المقاصد الجامعة لنظام البيعة في تحقيق الوحدة الوطنية

من خلال استعراض بنود ومعطيات التطبيقات الأولى لعقد البيعة في العهد النبوي نجد أن بيعة العقبة الثانية عند ما قدم على مكة في السنة الثالثة عشر من البعثة ثلاثة وسبعون من أهل يثرب لمبايعة

19 - دليل الإمام: مرجع سابق: ص 74.

الرسول صلى الله عليه وسلم كانت هذه البيعة أول نواة لانطلاقة وحدة الدولة الإسلامية حيث توحد بها الأنصار ووجد فيها المهاجرون المنفذ للفرار بدينهم والاستعداد للحاق بإخوانهم في يثرب.

فهذه البيعة شكلت إذن المنطلق السياسي لتكوين وحدة الدولة الإسلامية خصوصا وأن العقد كان ذا شقين استوثق فيه كل واحد من طرفيه لنفسه من خلال نصره الطرف الآخر والحفاظ على تنفيذه بحسن نية.

ويظهر كذلك المثل الأسمى لوحدة الدولة من خلال بيعة الرضوان في آخر السنة السادسة من الهجرة، وهي البيعة التي كانت فتحة عظيمة ولبنة أساسية في توحيد الأمة الإسلامية إذ لم تمض سنتان حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة في عشرة آلاف من أصحابه بعد أن أتى إلى صلح الحديبية في ألف وأربعمائة من رجاله²⁰.

وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ومن خلال عقد البيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تمت المحافظة على وحدة الدولة وتعزيز الشعور والسلوك داخل مجتمع إسلامي موحد يحكمه القرآن والسنة وتسوده راية دولة موحدة قوية حيث قطعت بيعة أبي بكر رضي الله عنه الطريق على كل خلاف كان سيعصف بالأمة الإسلامية ثم توليته عمر بن الخطاب رضي الله عنه عهد الخلافة دعما لوحدة الدولة وسيادة لواء العدل.

وهكذا يتبين أن نظام البيعة بما يحمله من مبادئ وقيم كفيل بأن يعزز تحقيق وحدة الأمة والوطن. لأن الصلاحيات والالتزامات المنوطة بالإمام المبايع تفرض عليه إحقاق الحقوق وإقرار العدل وتدبير شؤون الرعية بما يحفظ أمنها وطمأنيتها وهو ما من شأنه أن يرسخ قيم الوحدة الوطنية، إذ من المعلوم أن التشبث بالإسلام عقيدة والإمامة حكما والوحدة الوطنية دولة وشعبا كلها مبادئ تستمد قوتها من قدسية الدين وهيمنته على حياة الناس والمجتمع.

لذلك فمن المقاصد الجامعة لنظام البيعة في تحقيق الوحدة الوطنية أن البيعة ترمي إلى الوحدة في مواجهة التجزئة والتفرقة كما أنها تعزز نظام الدولة الواحدة في مواجهة الأنظمة القبلية. وهي - أي البيعة - تؤسس بذلك لمفهوم الأمة في مقابل العشيرة، كما أنها تحقق النظام في مواجهة الفتنة والفوضى. وفضلا عن ذلك فنظام البيعة يسعى إلى تمتين التوافق التاريخي بين القمة والقاعدة بفعل متانة الثوابت الدينية والوطنية المجمع عليها من جميع هيئات الأمة.

ومن أجل إبراز أثر نظام البيعة في تعزيز الوحدة الوطنية لا بد من الوقوف عند جملة من التنظيمات الشرعية المعززة لحكم الإمام وتديره لشؤون الرعية بما يحقق التلاحم الوطني والوحدة الوطنية، وهذه التنظيمات يمكن حصرها في الشورى - المناصحة - العدل - والأمن الروحي.

(1) الشورى وهي: "كل تشاور يؤدي إلى مناقشة الآراء المختلفة ويمكن من الترجيح والمفاضلة بينها واختيار أقربها إلى مقاصد الشريعة ومبادئها"²¹.

فالشورى أو الاستشارة قاعدة من قواعد الشرع وعزيمة من عزائم الأحكام وركن من أركان الحكم في الإسلام. لذلك اتفق العلماء على اعتبار مشورة أهل الرأي والتجربة والحكمة من أساسيات الإمارة وسنن السلطنة، وقد أكد الامام القرطبي في تفسيره أنه بالنظر إلى ذلك وجب على الإمام أو ولي الأمر مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وما أشكل عليهم من أهل الدين ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب واستشارة وجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ومشاورة وجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها²².

إن البيعة الشرعية مرتبطة بالشورى أشد ما يكون الارتباط ولذلك قال تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)²³ وفي آية أخرى (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)²⁴.

ولا شك أن التنصيب على مبدأ الشورى في آيتين من القرآن مكية ومدنية وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله له دلائل قاطعة على أن الشورى قاعدة من القواعد التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام.

وينبغي أن تكون الشورى في مختلف القضايا والأمور العامة التي تهم حياة الأمة الإسلامية ابتداء من تكوين هيئة الشورى واختيار الحكام والولاة الصالحين مما يعرف اليوم بالجهاز التنفيذي إلى تطبيق الأحكام على الناس بما يتفق ومبادئ القرآن والسنة والقوانين المسنونة وذلك في رقابة متبادلة بين الحاكمين والمحكومين.

21 - عبد الله الجارري: الإسلام والشورى، مجلة دعوة الحق المغربية العدد 7، السنة 13/1990م، ص: 27

22 - تفسير القرطبي: 250/2

23 - سورة آل عمران، الآية: 159

24 - سورة الشورى، الآية: 35

(2) النصيحة والمناصحة.

وهي من قواعد النظام السياسي في الإسلام ومن مميزات السياسة الشرعية بحيث يقدم أهل الفضل والمعرفة والرأي الحصيف من الأمة النصيح لإمامها كما يوجه الإمام النصيح لأمتة، إذ النصيحة جوهر الدين وحقيقته، حيث ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم"²⁵. مما يعني أن النصيحة حق واجب على الأمة التي لا يستقيم أمرها بغير تناصح وتوجيه ورقابة مما يندرج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصداقا لقوله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر)²⁶.

إقامة العدل:

أي المساواة بين المسلمين بل بين الناس جميعا من غير تفریق أو تمييز ودون التأثير بعصبية أو عاطفة مهما كانت امثالا لقوله تعالى: (إن الله يامرکم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها ولذا حکمتم بین الناس أن تحکمو بالعدل)²⁷.

ولا شك أن إقامة العدل بين مختلف طبقات الأمة على اختلاف المستويات والمواقع يعتبر من قواعد النظام السياسي والإسلامي ومقاصده. فمن العدل إشاعة أنوار الحرية وتيسير حياة الناس والإنصاف في الحكم وعدم التمييز وكل ذلك مما يحفظ للأمة تماسكها وتآلفها ووحدتها ويقوي روابط الاعتزاز بين أفرادها، وبذلك يتبين أن إقامة العدل من طرف الإمام المبايع يجعل مختلف شرائح الأمة راضين ومطمئنين، لأن يد العدالة التي تحكمهم تسوي فيما بينهم جميعا، وبالتالي لا مجال لحصول التفرق أو التحزب بل إن الجميع ملتئم وملتحم حول وحدة الوطن وبيعة الإمام.

تعزيز الأمن الروحي:

الأمن الروحي يقابل الأمن المادي الذي يهدف إلى حماية الأشخاص وممتلكاتهم والحيلولة دون الوقوع في الفتن، وبالرغم من أهمية الأمن المادي في الاستقرار وتعزيز الوحدة الوطنية إلا أن الأمن الروحي الذي يكفل الإمام حفظه وضمانه له أهمية قصوى في سياق الحديث عن أثر نظام

25 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة. رقم الحديث: 57.

26 - سورة التوبة، الآية: 72.

27 - سورة النساء، الآية: 58.

البيعة في تعزيز الوحدة الوطنية، فالأمن الروحي به تحصل الطمأنينة والسكينة التي تأتي نتيجة ممارسة الشعائر الدينية وفق نمط يقع عليه إجماع الأمة ضمن اختيار لثوابتها الدينية. فيكون من نتائجها الحتمية نبذ العنف والتطرف والاعتداء على الحرمات، ومن نتائجها أيضا تربية الفرد ليكون مطيعا لخالفه صالحا في مجتمعه فيعم الرخاء وتسود الطمأنينة ويحصل الأمن الروحي والأمن المادي على السواء قال تعالى: **(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض)**²⁸.

ومن المعلوم أن للأمة المغربية في ظل إمارة المؤمنين اختيارات مذهبية وسياسية آثرت أن تكون أساس وحدتها ومدار اجتماع كلمتها في الشأن الديني والسياسي فاحترامها وحفظها والدفاع عنها مما دعت إليه الشريعة ودلت عليه الأصول والقواعد الكلية في الدين لأنه لا تتم وحدة الأمة وتعزيز الأمن الروحي في ظلها إلا بذلك²⁹.

خلاصة:

هكذا إذن يتبين أن البيعة تعبر عن أمرين:

الأمر الأول: تكوين قاعدة سليمة للوحدة الوطنية من خلال التعبير عن إرادة الحياة المشتركة في ظل مجتمع تجمعهم مقومات روحية ودينية وثقافية وتاريخية. وهذه المقومات هي القاعدة الحقيقية للوحدة الوطنية، والأمة التي تشعر بتقارب في مكوناتها سرعان ما تشاق إلى وحدة في كيانها السياسي تحقق به ذاتها وتدافع به عن مصالحها. والوحدة الوطنية واقع وشعور ولا يمكن للإرادات الشاذة أن توقف حركة الحياة في تطلع فطري وغريزي يبحث عن الأمن النفسي والاستقرار الاجتماعي في ظل الجماعة المتعاونة والمتكاثفة والمتعاقدة على تكوين وحدة وطنية.

الأمر الثاني: المشاركة الفعلية في تكوين ظروف الاستقرار من خلال البيعة الشرعية للإمام.

فالبيعة الشرعية بما هي علاقة تعاقدية إرادية بين الإمام والأمة عندما تتم يلتزم كل طرف بما توجهه هذه العلاقة التعاقدية من آثار. ومن أبرز هذه الآثار ما يلي:

28 - سورة الأعراف، الآية: 95

29 - دليل الإمام والخطيب والواعظ، ص 45.

(1) عهد متبادل ديني وشرعي بأن يحترم كل طرف ما يوجبه عقد البيعة من التزامات وكل من أخل بالتزامه فقد أخل بها عاهد عليه.

(2) اعتبار الإمام حاميا للوحدة الوطنية، فلا يملك حق التفريط بتنازل أو مساومة ليست عادلة عن جزء من بلاده، لأن البيعة الشرعية تلزمه بأن يحافظ على وحدة البلاد.

(3) إدانة كل سياسة تهدف إلى الإساءة للوحدة الوطنية، واعتبار ذلك مما يسيء لمصلحة الأمة. وقد استخدم الفقه الإسلامي كلمة (البغاة) للتعبير عن إرادة البعض في تقويض وحدة الأمة بالانفراد عن جماعة المسلمين بما يهدد الأمن والاستقرار.

وحاصل الأمر أن البيعة الشرعية هي عقد أمان وعقد ثقة واستقرار وهي أخذ وعطاء واحترام متبادل يعبر عن تعلق القاعدة بالقامة والقمة بالقاعدة على حد سواء. وهي سبيل للاستقرار وترسيخ الوحدة الوطنية والحفاظ على الحوزة الترابية. وهي أي البيعة - إنما تقوم في إطار وطن موحد وأمة واحدة ذات خصائص مشتركة أبرزها وحدة الدين والعقيدة ووحدة الثقافة والتكوين ووحدة اللغة والتاريخ المشترك وهي كلها عوامل تسهم في تكوين إرادة حقيقية في حياة مشتركة في إطار وحدة وطنية متناغمة.

إمارة المؤمنين وتجلياتها في الماضي والحاضر

ذ. أبو بكر دو كوري

رئيس فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء
الأفارقة بجمهورية بوركينا فاسو

يشهد العالم اليوم أحداثا كبيرة وتغيرات جذرية وتحولات جوهرية أثرت سلبا في نظامه السياسي والفكري والاجتماعي، إذ نلاحظ عدم الاستقرار السياسي في معظم دوله وانتشار الفتن في كثير من مناطقه، مما أدى إلى قتل الأبرياء وترويع الآمنين وتشريد الآلاف بل الملايين من سكانه. أضف إلى ذلك تدمير البني التحتية وانهيار اقتصاد العديد من الدول بحيث تحتاج إلى عقود من الزمن لتصل إلى ما كانت عليه من النهضة العمرانية والنمو الاقتصادي والاجتماعي، كل ذلك بسبب الاستراتيجيات الخاطئة التي تبناها البعض والتي تقوم على أن حل مشكلات الدول ومعاناة شعوبها لا يأتي إلا من الثورات الشعبية والتمرد على الأنظمة القائمة والتخلص من التقاليد الرجعية المتوارثة. ولكن هذه الرؤية ثبت للجميع خطأها وعدم جدواها، لأن الدول التي التزمت هذه الاستراتيجية كوسيلة لحل مشكلاتها ليتها لم تفعل ذلك، إذ لم تتحسن أوضاعها المعيشية أو الأمنية، بل ازدادت سوءا وتدهورا. فأمن هذا العالم واستقراره وسعادة سكانه لا يتحقق شيء من ذلك إلا بالتمسك بتعاليم الدين والالتزام بالسنن الكونية التي وضعها الله في خلقه؛ لذلك حرص الإسلام على النظام والانضباط في أكثر نص من نصوص الكتاب والسنة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فِي سَفَرٍ فَأَمْرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدَكُمْ" ذاك أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما رواه كثير من أصحاب السنن المعتمدين وصححه بعضهم. فإذا كان هذا في أمر خاص ومهمة محدودة وهو السفر فما بالك بالشأن العام للأمة، التي اختارها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس، وحملها مسؤولية هداية الناس وانقاذ البشرية، فهل يمكن أن تترك هذه الأمة تتخبط في الفوضى بدون قائد يوجه مسيرتها ويدبر شؤونها؟ طبعا لا، لأنه تعالى يقول: (يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) 1 أي مهملا بحيث لا

1 - سورة القيامة، الآية: 35.

يؤمر ولا ينهي. إذ لا يمكن لأي مجتمع أن يكون سعيدا إلا إذا كان مجتمعا صالحا رشيدا ، لذلك ألزم الله كل فرد من أفرادهِ أن يكون مسؤولا عن نفسه وعن أعماله لأنه سيكون محاسبا عليها ، فإذا استقام وصلاح في نفسه استطاع أن يصلح غيره . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)²، فعلمنا أن الاسلام قد جعل لكل فرد من أفراد المجتمع مسؤولية سواء كان تابعا أو متبوعا حاكما أو محكوما ، ومعلوم أن المسؤولية المشتركة بين الحاكم والمحكوم في الإسلام تتمثل قبل كل شيء في التعاون علي البر والتقوي ويبدأ ذلك بالتزام الجميع بتعاليم الإسلام والتمسك بشريعته السمحة.

وإذا رجعنا إلى نصوص الكتاب والسنة نجد أن الإسلام لم يفرض على الناس شكلا معينا لنظام الحكم، لأن مصالح الناس تختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأماكن ، فرب قانون يحقق مصلحة في مكان أو زمان ما أو لمجتمع ما ولا يحققها في زمان أو مكان آخر ، أو لأمة أخرى ، ولكن حتي لا يقع الناس في حرج أو خطأ، شرع لهم الإسلام الأحكام الأساسية والمبادئ العامة التي يقوم عليها نظام الحكم في كل زمان ومكان، وترك الفروع والتفاصيل لكل مجتمع أو أمة تتصرف فيها بما يحقق أمنها ومصلحتها، علي ألا تتعارض هذه الفروع مع الأحكام الأساسية والمقاصد العامة للشرعة الإسلامية. هذا هو الفرق بين نظام الحكم في الإسلام وبين الأحكام والقوانين التي يضعها البشر، لأن هذه الأخيرة لا تخلو من الحيف والجور في أغلب الأحيان، إذ البشر لا يشرعون الأحكام إلا لحماية مصالحهم دون غيرها من المصالح، بدليل أن أرقى الديمقراطيات في هذا العصر والتي تتغنى دائما بالعدالة وحقوق الإنسان وحكم الشعب تقوم بسن قوانين تتناقض مع هذه المبادئ وتضر بمصالح البلاد والمواطنين. والأمثلة على ذلك كثيرة كقوانين إباحة حمل السلاح للجميع مع ما تسببه من إزهاق أرواح عشرات الآلاف من المواطنين سنويا، وكتفاوت رواتب الجنسين في بعض هذه الدول حتى في حالة تساوي المؤهلات العلمية وقيامهما بعمل واحد، وكسن قوانين معينة لأشخاص معينين دون غيرهم تميز تلك القوانين حبسهم لسنوات طويلة دون محاكمة، فقط بسبب انتمائهم العرقي أو الديني، أو قيام بعض الدول بتجريم التميز بشعار ديني دون أن يكون الحكم عاما وشاملا لجميع الأديان، أو منع من انتخابه الغالبية العظمى من الشعب من الحكم مع أن قواعد الديمقراطية معارضة لذلك إلخ. وأيضا فإن العقل البشري قاصر لا يقوى على الإدراك الشامل والإحاطة التامة بكل المصالح المتعلقة بالعباد في مختلف الأزمنة، لذلك فما يصدر منه من القوانين

2 - حديث متفق عليه.

والأحكام لا يخلو من القصور والنقص، بخلاف ما صدر من خالق البشر الذي أحاط علمه بكل شيء، والمتصف بالرحمة العامة والعدالة المطلقة فلا يمكن أن يتصف بالقصور أو الجور أو القسوة. فإذا التزم الجميع بهذه الأحكام وأدى كل من الحكام والمحكومين ما عليهم من حقوق وواجبات سعدوا جميعاً، فالحكم في الإسلام إذن هو حكم مصدره الأساسي التعاليم الإلهية التي يجب على الجميع الالتزام بها. ولما تعذر قيام كل المجتمع بالأعباء والتكاليف المتعلقة بالحكم أوجب الله عليه أن يختار من يحمل عنه تبعة القيام بهذه التكاليف، ومن هنا ظهر مفهوم البيعة، أي بيعة الشعب للحاكم. ومن يتم اختياره لحفظ أمن البلاد ورعاية شؤون الرعية قد يحمل لقب الرئيس أو الملك أو السلطان أو الحاكم أو غير ذلك، إذ لا مشاحة في الاصطلاح، وإن كان قد جرت العادة تسميته في الدولة الإسلامية بالإمام أو الخليفة أو أمير المؤمنين.

ويقصد بالإمام هنا من يتولى الإمامة الكبرى في الدولة لا مجرد من يقتدى به في الصلاة أو في علم من العلوم، فيعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم أول إمام في الإسلام، لأن الله تعالى قال عقب ذكر بعض الأنبياء: **(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)**³ ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء وسيد المرسلين، وبعده يطلق هذا اللقب على كل من خلفه في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وإن كان أول من خلفه صلى الله عليه وسلم في ذلك وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد اشتهر بلقب الخليفة، وهو أول من لقب بهذا اللقب في الإسلام، واستمر إطلاقه على كل من يتولى أمر المسلمين ويكون قائداً للدولة الإسلامية ابتداء من الخلفاء الراشدين ومروراً بالأمويين والعباسيين والعثمانيين، وبعض الحكام في الأندلس وشمال إفريقيا، فكان الولاة والسلاطين يقدمون ولاءهم للخليفة العام إلى أن تم إلغاء هذا اللقب في عام 1924م، عند قيام الجمهورية التركية. ويوجد من المسلمين المعاصرين من ينادي باسترجاع الخلافة الإسلامية. أما لقب أمير المؤمنين فأول من لقب به هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأن أبا بكر رضي الله عنه كان يلقب بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما خلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تولي أمور المسلمين وقيادة دولتهم لقبه بعض الصحابة بخليفة خليفة رسول الله، فقال عمر ذاك أمر يطول فتوافقوا على تسميته بأمر المؤمنين، فأصبح عند أهل السنة والجماعة لقباً لكل من تولى الإمامة الكبرى للمسلمين. أما الشيعة فقد خصصوا هذا اللقب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه دون غيره، بناء على معتقدتهم في أن الإمامة العظمى للمسلمين لا تكون إلا في آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

3 - سورة الأنبياء، الآية: 72.

أهمية إمارة المؤمنين في تاريخ الإسلام

لا يخفى على أحد أهمية إمارة المؤمنين في حياة المسلمين، لذلك وضع العلماء شروطاً لمن يتولاها مثل العلم والتقوى والعدالة والأمانة والكفاءة الخ لكي يتمكن من القيام بأعبائها ومسؤولياتها الكثيرة والصعبة، لأنه مكلف بنشر دعوة الإسلام وإقامة ميزان العدل بين جميع أفراد المجتمع، وأداء الأمانات بمختلف أنواعها والدفاع عن مكاسب الإسلام، والدود عن كرامته وعن مصالح المسلمين.

وطريقة اختيار أمير المؤمنين تكون بتوافق أو بقرار الأغلبية من أهل الحل والعقد لأنهم أعلم بالأكفأ من الناحية الدينية وأدرى بالأصلح من الناحية العملية أما العامة فلا اعتبار لرأيهم لعدم أهليتهم للنظر في مثل هذه القضايا.

ويكون الاختيار كذلك بتزكية من الحاكم السابق، كما حدث في تزكية الخليفة أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب، فيقبله المسلمون ثقة في أميرهم واحتراماً له. وهذا يحدث حتى في الديمقراطيات المعاصرة، فإن الرئيس قد يرشح أو يعين أحداً فيتوقف نفاذ التعيين على مصادقة البرلمان أو يخضع لاستفتاء شعبي بالموافقة. فإذا تم اختياره بناء على توفر الشروط المعتمدة، فيه فإنه يجب أن يبايعه الجميع على السمع والطاعة وأن يدعو له الجميع بالسداد والتوفيق والصلاح، لأن في صلاحه مصلحة كبيرة للبلاد وخيراً كثيراً للمواطنين، فالإنسان لا بد أن يكون صالحاً في نفسه أولاً ليتمكن من إصلاح غيره. وهذا هو السر في الدعاء لأمر المؤمنين في المغرب عقب صلاة الجمعة في كل مساجد البلاد وفي كل المناسبات المباركة.

المسؤولية المشتركة بين أمير المؤمنين والرعية

إن البيعة أهم ما يربط الحكام بالمحكومين، لأنها عهد بين الطرفين للتعاون على الخير وقيام كل طرف بما له وما عليه من الواجبات لتحقيق مصلحة البلاد والعباد. وقد لخص الماوردي واجبات الحاكم في عشرة أمور على النحو التالي: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه السلف، تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين - والمتخالفين - لتحقيق العدل ومنع الظلم، حماية الوطن من الفتن، وإقرار الأمن وإقامة الحدود لصيانة محارم الله، تحصين الثغور وحراستها من العدو، الجهاد لمن يعادي الإسلام ويقف أمام طريق الدعوة، جباية الفىء والزكوات، أى تدبير موارد الدولة، تقدير العطايا والاستحقاقات في بيت المال، اختيار الأكفأ من العاملين، مراقبة تنفيذ ومتابعة سير العمل في الدولة⁴.

4 - راجع الأحكام السلطانية للماوردي، ص 15.

وباستعراض ما ذكره نجد أن الحاكم مكلف بتأمين نشر دعوة الإسلام في كل مكان وتحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع المواطنين والمحافظة على أمن البلاد واستقراره وتنمية الاقتصاد الوطني بما يحقق السعادة والرفاهية للجميع، فهذا هو المطلوب وإن اختلفت التعبيرات والأسماء فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء، فلا مشاحة في الاصطلاح. وكذلك سواء تعددت المصالح وتنوعت بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة، فالمهم تحقيق الأهداف والمقاصد والمصالح، وبذلك يستحق كل من المحكومين الوفاء بالبيعة لقوله تعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) 5 فعلمنا أن العهد والوفاء به إنما يكونان للإمام أو الأمير مقابل قيامه برعاية شؤون المحكومين، لكونه وكيلاً عن الأمة ونائباً عنها في تحقيق مصلحتها. فإذا تمت البيعة على أساس مشروع وجب التزامها وعدم نقضها، لأن عدم البيعة أصلاً أو نقضها من دون وجه حق يعد خروجاً عن الجماعة، إضافة إلى ما في ذلك من إثارة للفتن التي تضعف شوكة الأمة وتمزق وحدة المسلمين، لذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أشد التحذير فقال: (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) 6.

ويلزم من البيعة كذلك شرعاً طاعة المبايع والرضا به حاكماً وأميراً قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) 7، وفي حديث عبادة بن الصامت قال: (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، قال إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) 8، وقال صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني) 9.

ويجب على الرعية كذلك غض الطرف عن بعض العيوب، والصبر على بعض الأخطاء التي قد تصدر من الحاكم إن لم تؤد إلى الكفر، أو تعريض أمن البلاد للخطر، ولا يعني ذلك الإقرار بالخطأ أو الرضى بالظلم، وإنما لحقن الدماء وجمع الكلمة وعدم إثارة الفتن في المجتمع، لأن الحكام بشر، وليسوا

5 - سورة النحل، الآية: 91.

6 - حديث متفق عليه.

7 - سورة النساء، الآية: 58.

8 - نيل الأوتار: 259/4.

9 - حديث متفق عليه.

معصومين بل يعملون فيصيبون ويخطئون شأن كل البشر، لذلك يجب ألا تقابل أخطاؤهم بالتمرد عليهم وحمل السلاح ضدهم، بل باستخدام الوسائل المؤدية إلى منع هذه الأخطاء دون أن يترتب على ذلك فساد كبير، كالنصح والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا ينبغي أن تلمس من عملية الإصلاح أية إهانة في حقه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أهان السلطان أهان الله) 10 وعلى الحاكم أن لا يغتر بهذه النصوص التي تمنع الرعية من الخروج عليه، والتمرد ضده فيتمادى في ظلم الرعية وارتكاب المخالفات، بل عليه أن يلتزم القانون ويتمسك بالدستور شأنه في ذلك شأن الرعية، وأن يهتم بالشورى إذ لا شيء يمكن الحاكم من القيام بواجباته تجاه رعيته ويجنبه الخطأ في إدارة شؤون الحكم مثل اعتماده على الشورى، لذلك أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بها فقال: (وشاورهم في الأمر) 11، وقال في وصف المؤمنين: (وأمرهم شورى بينهم) 12. وامثالا لهذه النصوص الشرعية كان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في كل الأمور، وينزل على رأيهم إذا ظهرت فيه المصلحة. والأمثلة على ذلك كثيرة كما في غزوة بدر وغيرها. وفي المستدرك للحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم).

إن من المسلم به عقلا وشرعا أن يكون الحاكم قدوة للمحكومين حتى قيل في المثل السائر: الناس على دين ملوكهم، فالحاكم إذا كان صالحا أحبته الرعية ولم تتردد في طاعته وتنفيذ أوامره، وهذا هو سر نجاح نظام إمارة المؤمنين في المغرب. فأمر المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأسلافه من الملوك العلويين، يعترف بإمارتهم للمؤمنين جميع المسلمين سواء كانوا من أهل السنة والجماعة الذين يشترطون في أمير المؤمنين الكفاءة بشروطها المعروفة عندهم. أو كان من الشيعة الذين يشترطون بالإضافة إلى تلك الشروط أن يكون من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فهم جمعوا كل الشروط والمواصفات التي يشترطها هؤلاء وأولئك، مما مكنهم من تثبيت ركائز الاستقرار السياسي والأمن الوطني والتقدم الاقتصادي والسلم الاجتماعي في المغرب. وأهم هذه الركائز:

1. التمازج بين الأصالة والحداثة، مما مكن من بناء دولة المؤسسات وتمكينها من مزاولة جميع نشاطاتها السياسية والتشبيث بقواعد الديمقراطية دون التفريط بالثوابت الدينية أو القيم والتقاليد الموروثة.

10 - رواه الترمذي وحسنه.

11 - سورة آل عمران، الآية: 159.

12 - سورة الشورى، الآية: 35.

ومن ثم فهناك مرحلتان في تطور النظام السياسي الدستوري المغربي، المرحلة الأولى تبدأ من صدور أول دستور للبلاد سنة 1962م، والذي لم يعمر طويلا بسبب إعلان حالة الاستثناء في 7 يونيو 1965م، والتي امتدت سياسيا حتى إصدار دستور جديد سنة 1972م، ثم آخر سنة 1974م، غير أن دستوري 1992م ثم دستور 1996م، أسسا لمرحلة جديدة، أي لعهد جديد، عهد التناوب، التي تُوج بتعيين حكومة عبد الرحمن اليوسفي في 4 فبراير 1998م، والذي أطلق عليه عهد «التناوب التوافقي».

غير أن المرحلتين ليس بينهما قطيعة، ف «التناوب التوافقي» له جذور في المرحلة السابقة، بل هناك تغيير وتجديد داخل الاستمرارية، وهنا تكمن خصوصية التجربة المغربية. هكذا سنتعرض لحالة الاستثناء التي أفضت مع استكمال الوحدة الوطنية إلى استرجاع الإجماع الوطني والذي يعتبر من إرهاصات التناوب، في المبحث الأول، لندرس في المبحث الثاني الإصلاح السياسي الدستوري أي مخاض التناوب السياسي الذي أفضى إلى «التناوب التوافقي»، والذي خلق في مرحلة مخاضه قاموسا سياسيا خاصا.

المبحث الأول: من الممانعة إلى الإجماع الوطني

ما هي الظروف العامة التي فرضت إعلان حالة الاستثناء؟ وما هي نتائجها المباشرة والبعيدة؟ وما هي حالة الاستثناء على المستوى الدستوري؟

أولا. الظروف العامة: حالة الاحتقان السياسي

عاش المغرب صراعا سياسيا حول نظام الحكم، منذ بداية الاستقلال حتى صدور دستور 1962م، الذي أقرّ السموّ السياسي والدستوري للملكية، حيث عمل على "دسترة سمو مشروعية وسلطة الملكية التاريخية والدينية والسياسية باقتباس التقنيات الدستورية للأنظمة الرئاسية، كما أنه قد عمل على عصرنة سلطة التنفيذ (الحكومة) والتمثيل والتشريع والمراقبة (البرلمان) باقتباس تقنيات العقلنة البرلمانية"².

والواقع أن الصراع السياسي الذي احتدم غداة افتتاح أشغال أول برلمان مغربي، بعد إقرار دستور 1962م، كان حول مفهومين للحكم «المفهوم الملكي للملكية رئاسية حاکمة» ومفهوم الحركة الوطنية المتمثلة في حزب الاستقلال أساسا، إلى جانب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والحزب

2 - محمد معتمد، النظم السياسية المعاصرة، إيزيس، الدار البيضاء، 1993، ص. 130.

من حالة الاستثناء إلى الإجماع الوطني

ذ. عليّ حَسَنِي
كلية الحقوق، مراكش

تَشكَّل النظام الدستوري المغربي، عبر مراحل أولها إصدار أول دستور للبلاد في 7 دجنبر 1962م، والذي أسس لهذا النظام، حيث تبلور عبر عدة تعديلات دستورية، هدفت إلى إدماج كل القوى السياسية المعارضة، في هذا النظام، الذي جعل الإسلام والملكية والوحدة الترابية أسسه الثابتة.

وشكلت لحظة الاستثناء لحظة تاريخية، رغم طولها، بالإضافة إلى التحولات الوطنية والعالمية، لإعادة التفكير في إشكالية تنظيم اللعبة السياسية على قواعد جديدة، تكفل إدماج المعارضة بكل أطرافها في النسق السياسي الدستوري، عبر التناوب التوافقي الذي نحته الراحل الحسن الثاني طيب الله ثراه خلال عدة سنوات، بل منذ التجربة البرلمانية الأولى.

ففكرة إدماج المعارضة، كانت لجلالة المغفور له الحسن الثاني، منذ التجربة البرلمانية الأولى، حيث ركّز جلالته على إن "... ملككم ... أشدّ إحساسا بضرورة اجتماع الكلمة وأقواكم إيمانا بوحدة الصفّ. مرّت ثلاث أشهر على ندائنا لهذه الوحدة، تخلّلتها اتصالات واستشارات قمنا بها مع مختلف الأحزاب السياسية والنقابية ... كما حدّدنا في المذكرة التي سلّمناها لمن استشرناهم مبادئ توجيهية، اقتنعنا بحاجة العرض إلى التعجيل به، واعتبرناها أساسا لبرنامج تلتقي حوله جميع العناصر لتدشين عهد ائتلافي وعهد المصالحة الوطنية"¹، غير أن ظروف إنصاجها لم تتوفر آنذاك.

تطلب الإجماع حول الملكية، ملكية تنفيذية، ذات شرعية سياسية ودستورية وتاريخية، ثلاثون سنة، من دستور 1962م حتى دستور 1992م الذي سيعدّل سنة 1996م، الذي كرس فكرة التناوب، لأول مرة بالمغرب، والتي تعني الإصلاح السياسي والدستوري لاندماج المعارضة بكل أطرافها في النظام السياسي الدستوري، الذي أسس منذ الدستور الأول سنة 1962م.

1 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، عيد العرش، 3 مارس 1965م، نشر وزارة الأنباء، الرباط، 1965.

بالزئقة... على الناس بالترقب عليهم ونحوه ولا على جانب الأحباس فساعده على معاوضته ليظهر ما يكون في ذلك والسلام.

في 9 صفر الخير 1300 هـ¹⁹.

وبخط من يجب: قابلها بأصلها فمائلتها وأشهد الفقيه الأجل العلامة الأفضل قاضي طنجة (اسمه مطموس تحت علامته)²⁰. ومما يثير العجب أن هذا الحنو سار على جميع الذميين حتى لو لم يكونوا من رعايا جلالته ومنطوق الكتابين السالفين أعلاه ينهان عن ذلك.

وبه تظهر علاقة مؤسسة إمارة المؤمنين برعاياها المغاربة مسلمين كانوا أو من ديانة أخرى.

19 - نالت الرطوبة من الظهير المذكور وقد عدنا إلى الترجمة الفرنسية إلى محاولة ترميمه.

20 - الأصل بالحوالة صحيفة 444 يقابلها في الترجمة الفرنسية، ص 207.

وفي نص آخر نجد:

الحمد لله وحده

نسخة كتابين شريفيين علويين منيفين

نص الأول: الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه

وبعد؛ الطابع الشريف نوقش داخله

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

نص الخطاب:

خديمنا الأرضي ناظر أحباس طنجة المحروسة بالله الطالب عبد القادر أحرضان وفقك الله
وسلام عليك ورحمة الله تعالى.

وبعد؛ فقد طلب من جانبنا العالي بالله باشدورالطاليان لنحيم ناهون الطلياني تعويض
حوانيت الأحباس السبع الكائنة بسوق الصياغين بطنجة المجاورة لداره بما فيه نفع الأحباس.
وعليه فنأمرك على تعويضه لك بما هو أنفع منها للأحباس على وجه شرعي.

في 5 صفر 1304 هـ.

وذيل الظهير بخط من يجب.

ونص الثاني:

الحمد لله وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه

وبعد؛ الطابع الشريف نوقش داخله

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

نص الخطاب:

خديمنا الأرضي ناظر أحباس ثغر طنجة المحروسة بالله الطالب عبد القادر أحرضان.

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد؛

فقد طلب من جانبنا العالي بالله باشادورالطاليان لناهون الطلياني [حيازة السبع حوانيت بزقة
الصياغين يمين السوق الداخلي]... على ما هو أنفع بالعوض الذي بداخل طنجة... وكل هذا

في 4 شوال عام 1303هـ¹⁷.

وتشهد نصوص حوالة مدينة طنجة على عهد السلطان الحسن الأول - رحمه الله - على حنو ورعاية مؤسسة إمارات المؤمنين على كل رعاياها مسلمين كانوا أو يهودا وبما أن باب البيعة ظل مفتوحا حتى لمن كان على غير دين الإسلام عثرنا على وثيقة نفيسة ضمن سجل أحباس طنجة الذي نشرته البعثة العلمية سنة 1906م، كما سبقت الإشارة مضمونها ظهير حسني منيف يأمر الخديم الأرضي عبد القادر أحرسان ناظر أحباس طنجة بالوقوف مع المسمى GENTLE مترجم البعثة الدبلوماسية الإيطالية للانتفاع بأرض من أراضي الأحباس على الوجه الشرعي¹⁸.

ونص الظهير:

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله

وبعد؛ الطابع الشريف: نقشه: الحسن بن محمد الله وليه ومولاه.

وبعد؛ خديمنا الأرضي ناظر أحباس ثغر طنجة المحروس بالله الطالب عبد القادر أحرسان وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد؛

فقد طلب من جانبنا العالي بالله GENTLE ترجمان باشدورالطالين تعويض طرف من الأرض صغير للأحباس متصل بجنان أحباس الولي الصالح سيدي عمر عيش بما فيه نفع لها وعليه فنأمر أن تساعد على المناقلة فيه على وجه شرعي ولا بد والسلام.

في فاتح رجب 1309هـ.

ولقد ذيل هذا الظهير في الحوالة: بخط من يجب، قابلها بأصلها فما تلتها وأشهد الفقيه الأجل العالم الأفضل المدرس الأنبل قاضي الجماعة بطنجة وما انضاف إليها حينه وهو (الاسم مطموس تحت علامته) أعزها الله تعالى وحرسها باستقلال بالكتاب الشريف الاستقلال التام.

في 4 ذو القعدة الحرام عام 1303 هـ.

وتحت مجموعة من علامات عدول الوقت وأسمائهم أبرزهم عبد ربه الهاشمي (علاماته معمة).

17 - نفس المصدر السابق.

18 - انظر أصلها في الحوالة صحيفة 439 مقابلها في النص الفرنسي، ص 205.

ونص الخطاب:

خديمنا الأرضي ناظر أحباس ثغر طنجة المحروس بالله الطالب عبد القادر أحرصان وفقك
الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد؛

فقد طلب من جانبنا العالي بالله حليم بن شيمول ترجمان الفرانسييس تعويض أربع حوانيت
للأحباس ملتصقة بداره هناك بما هو أنفع منها للأحباس فنأمرك أن تساعد على ذلك وتقف [معه]
حتى يكون الأمر على وجه شرعي فيه النفع للأحباس ولا ضرر فيه عليه.

والسلام في 10 صفر الخير عام 1303 هـ¹⁶.

وذيل الظهير في الحوالة بقولهم: وبعده بخط من يجب.

ونص الثاني:

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وبعد؛ الطابع الشريق
نقش وسطه

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

نص الخطاب:

خديمنا الأرضي ناظر أحباس ثغر طنجة المحروس بالله الطالب عبد القادر أحرصان وفقك
الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد؛

فقد طلب من جانبنا العالي بالله حليم بن شمول الترجمان تعويض أربع حوانيت للأحباس
هناك بما فيه النفع لها زيادة على أربع حوانيت المتقدم بها أمرنا الشريف فنأمرك بمساعدته على
تعويضها على وجه شرعي لا ضرر فيه عليها ذاكرا أنها تتصل بداره ولا يتم بناؤها إلا بإدخالها لها.

في 10 جمادى الثانية عام 1303 هـ.

وذيل الظهير المذكور: بخط من يجب قبولت بأصلها فمائلتها وأشهد الفقيه الأجل قاضي
طنجة (اسمة مطموس تحت علامته) أعزه الله باستقلال الكتابين الشريفين الاستقلال التام لثبوتها
عنده وهو رعاها الله بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

16- انظر أصل الظهيرين مسجلين في الحوالة صحيفة 435، وانظر التعليق عليها في ص 205 من المصدر المذكور آنفا.

لكون الأملاك مناسبة للتاجر المذكور -أمر سيدنا أعزه الله ونصره الفقيه الأرضي الوجيه الأحظي السيد الحاج محمد الطريس بأن التاجر حسيم المذكور يدفع ما قومت به الأملاك المذكورة عينا وينزله تحت يد أمين حتى تشتري به أملاك عوض الأملاك المناقل بها حسبها ذلك بالمنتسخ يمينه لكون التاجر حسيم المذكور لم تكن له أملاك مناسبة يدفعها للحبس حينه.

وأقر التاجر المذكور جميع الثمن الذي قومت به الأملاك المتحدث عنها آنفا الذي قدره 3800 ريال حسبها ذلك مبين بالتقويم حوله ودفعه للناظر المذكور معاينة بمحضر السيد الحاج محمد الطريس المذكور وأمنه تحت يد الأمين على النصري الشريف أعزه الله حسبها ذلك بالمنتسخ يمينه حتى يشتري به الأملاك وبذلك برئت ذمة الدافع المذكور من الثمن المذكور كله براءة تامة وبسبب ذلك تملك جميع الأملاك المناقلة بها المذكورة بالتقويم حوله تملكا تاما بعد النظر والرضى.

ثم طوع في ذلك الفقيه الأجل العالم العلامة الأفضل الأمل الخطيب نائب قاضي طنجة لمغيبه¹⁵ وهو (اسمه مطموس تحت علامته) أعزه الله فاقتضى نظره السديد ورأيه الموفق الرشيد هذه المناقلة امثالاً للأمر المولوي أعزه الله وخلد بالصالحات ذكره شهد على إشهداده دامت كرامته بها فيه عنه وهو رعاه الله، بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر.

في شهر 4 رمضان المعظم عام 1302هـ.

ويكفي دليلاً على حنو إمامة المؤمنين وأرحمتها ورعايتها لأهل الذمة من المواطنين المغاربة أن التاجر السابق الذكر رغم كونه لم تكن له من الأملاك ما تتم به المعاوضة إلا أن مناقلته عينا للأملاك الحبس قبلت، فهل من دليل أقوى من هذا على أرحمية ملوك المغرب وعدلهم في رعيتهم.

ومن يتابع تصفح الحوالة يعثر على نصين آخرين من ظهيرين شرفين علويين يتعلقان بتسهيل أمور التاجر الذمي ابن شيمول.

نص الأول:

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وبداخله الطابع الشريف

نقش وسطه الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

15 - أي لمغيب قاضي البلد آنذاك.

محمد بن يحيى المجاورة للدويرة المذكورة فنظروها نظرا تاما كافيا وتأملوها تأملا عاما شافيا فظهر لهم بدليل معرفتهم وبرهان اجتهدهم أن ثمن كل واحد منهما 400 ريال وزاد على ثمن كل منهما 50 ريال غبطة.

كما وقفوا على بيت الدار التي بها أولاد الفارسي المنسوبة لجانب الحبس المجاورة لدار تاجر حليم بن شيمول داخل الثغر المذكور الكائنة عن يسار الداخل للدار المتحدث عنها فنظروها نظرا تاما كافيا وتأملوها تأملا شافيا فظهر لهم بدليل معرفتهم وبرهان اجتهدهم أن ثمنها 600 ريال وزادوا على المال المذكور 100 ريال غبطة مشهدين شهيديه أن ثمن الكل لا بخس فيع ولا شطط قوم له وتقلدوه وبذلك برئت شهادتهم.

في 26 من شعبان عام 1302هـ¹⁴.

وعلق مجموعة من الشهود التي حُفظت لنا الحوالة المذكورة أسماء بعضهم بينما طمست أسماء البعض الآخر بفعل الرطوبة ومن الذين حفظت أسماءهم عبد السلام بن عمر البناء والتاجر السيد محمد والقاضي والمعلم الجليلي المصمودي والحاج عبد الرحمن البربري البناء والمعلم عبد السلام اليداري النجار والمعلم عبد الرحمن الجراري النجار، واحتفظت لنا كذلك الحوالة بقول الناسخ أو العدل:

الحمد لله أدى الشهود التاجران والبناءان والنجاران المذكورون صدره الشهادة.

وهذا دليل قاطع على أن الأوامر المتعلقة بالمخالفين في الدين زمن الحسن الأول - رحمه الله - كانت محل عناية الجميع لا ريب.

ونعثر في الحوالة المذكورة على ظهير شريف آخر ومضمونه يؤكد ما سبق أعلاه مهد له بالنص الآتي:

الحمد لله وحده:

لما ورد الأمر الشريف أعزه الله المقابل بالامثال والسمع والطاعة على الناظر الأبر الطالب السيد عبد القادر بن السيد علي أحرضان بأن يناقل التاجر حليم بن شمول الطنجي - حسبما ذلك بالمنتسخ يمينه في الأملاك المذكورة حوله بعد أن تقدم أرباب المعرفة وأرباب البصر كما مبين حوله

14 - انظر أصل الوثيقة في الحوالة بصحيفة 433، وانظر كذلك: الترجمة الفرنسية لمضمونها في ص 204 من الكتاب المشار إليه أعلاه.

فراجعت سيدنا أيده الله فقال لي أدام الله علاه وساعده وأذن الحاج محمد الطريس بذلك، وعليه فلا بد قف معه في ذلك ولا تقصر حتى يتوصل بغرضه وعلى المحبة.

والسلام في 13 شعبان الأبرك عام 1302¹³.

ووثق هذا الظهير الشريف وسجل بحوالة أحباس مدينة طنجة التي نشرتها البعثة العلمية المغربية الفرنسية سنة 1906م ومن بين الموقعين على التسجيل: عمر بن العربي بن المختار (وهو لا شك من العدول) وبعده بخط نائب من يجب: قوبلت بأصله فقابلته.

وأشهد الفقيه الأجل العلامة الأفضل نائب قاضي طنجة أعزه الله وحرسها المقابلة والاستقلال من الأصل المنتسخ منه وصح لديه الاستقلال التام لصحته عنده واكتفائه لديه وهو حفظه الله تعالى يجب لذلك من حيث ذكر في 4 رمضان المعظم عام 1302هـ.

فهل مثل هاته النصوص التي تشهد بالواقع تحتاج إلى دليل.

وتذهب وثائق أخرى إلى درجة أعلى من حيث الضبط والوضوح بعد العثور في إحداها: عن إذن من يجب أسماء الله وأرشدته أمرا بتقويم مجموعة من أملاك الأحباس والسماح للمدعو حليم بامتلاكها مقابل معاوضة تحولت إلى مناقلة عينية. تقول الوثيقة:

وقف شهود الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه : الأولان تاجران والثانيان بناءان والثالثان نجاران، أن الأمر أوجب ذلك إذ هم من أهل المعرفة وأرباب البصر بقيمة الأملاك وأثمانها وهم إليهم المرجع في علم ذلك بالثغر الطنجي -كلأه الله- على عين دار ابن كورة المنسوبة لجانب الحبس التي هي الآن بيد التاجر حليم بن شمول الكائنة بصابا البقالين داخل الثغر المذكور فنظروها نظرا تاما كافيا وتأملوها تأملا عاما شافيا فوجدوها متلاشية ولا بيوت بها فظهر لهم بدليل معرفتهم وبرهان اجتهداهم أن ثمنها 900 ريال وزاد على الثمن المذكور 100 ريال غبطة.

كما وقفوا أيضا على دورية "أهل السول" الكائنة بالسوق الداخل بطنجة [وهي] خربة المشتملة على سبعة بيوت صغار ومصرية صغيرة أيضا فوجدوها متخربة داعية للسقوط فظهر لهم بدليل معرفتهم وبرهان اجتهداهم أن ثمنها 1000 ريال بالأفراد وزاد على الثمن 100 ريال غبطة، كما وقفوا أيضا على الحانوت التي بها الطالب السيد ادريس بن ادريس والханوت التي بها الطالب السيد

13 - انظر أصل الوثيقة مصورة بسجل حوالة طنجة، ص 431 وانظر كذلك تذييل ميشوبليير على النص الفرنسي: Les Habouses de Tanger : analyses et extraits p : 203, Michaux Bellaire

الحمد لله وحده

نسخة من كتابين شريفيين علويين

نص الأول:

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة إلا بالله وبعده الطابع الشريف داخله:

الحسن بن محمد الله وليه ومولاه

وبعد؛ خديمنا الأرضي الطالب عبد القادر أحرصان وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعده؛
فقد طلب من جانبنا العالي بالله التاجر حليم بن شمول¹⁰ المناقلة¹¹ في أروى بيده لأحباس
طنجة متصلة بداره بخارجها حانوتان وفندق صغير ويشتمل على بيتين فقط تتصل بداره وفي إدخال
بيت من ملك الأحباس لداره على الوجه الذي فيه النفع للأحباس ولا ضرر فيه علينا. وعليه
فنأمرك أن تساعد على الوجه المذكور.

والسلام في 18 رجب الخير 1302هـ.

وذيل الكتاب الشريف زيادة في التوثيق: بخط نائب من يجب.

ونص الثاني :

الحمد لله وحده وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم،

وبعد؛ محبنا الأعز الأرضي السيد الحاج محمد الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله عن
خير مولانا نصره الله. وبعده؛

فمجاملة للذمي حليم الذي طلب من سيدنا أيده الله تعويض بعض الأملاك للأحباس
بموجب شرعي فساعدته أعزك الله.

وكتب الوزير آنذاك للناظر بما نصه¹²: تعلق بجانبنا طالبا منا الكتابة لك لتأخذ بيده عاجلا وما
تقوم به أملاك الأحباس يدفعه مالا ويترك عن أمين حتى يشتري به الأحباس ما يناسب.

10 - حليم بن شمول تحكي عنه المراسلات أنه كان تاجرا ثم أصبح ترجمانا بسفارة فرنسا.

11 - المناقلة: هي المعاوضة.

12 - لعل الناظر استفسر جهات أخرى فكان جواب الوزير له.

الإمام على الطاعة والوفاء بالعهد لأن دلالتها أي دلالة بيعة الرضوان لا زالت سارية باقية، ولهذا ظلت باب البيعة بأنواعها المنصوص عليها في كتب الفقه والسنة مفتوحة لسائر المسلمين كبيرهم وصغيرهم نسوتهم وذكرهم.

ولما كان بعض المواطنين المغاربة من ديانة أخرى، ولما كان ملوك الدولة العلوية وغيرهم ممن سبق لا يصدر عن في شيء ذي بال إلا عن فتاوى العلماء أهل الحل والعقد ولما كان العلماء ورثة الأنبياء فإنهم كانوا لا شك يستحضرون عند كل نازلة ما جاء في القرآن والحديث: لأن بر المخالفين مأذون فيه بنص الكتاب والسنة من ذلك قوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم..."⁴ وقوله ﷺ: (من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)⁵ وقوله ﷺ: (أيما من رجل آمن رجلا على ذمته ثم قتله فأنا من القاتل برئ وإن كان المقتول كافرا)⁶، وعلق ابن ماجة على الحديث الشريف قائلا: "إنه أي القاتل يحمل لواء الغدر يوم القيامة"⁷. ولهذا ذهب القرافي وغيره من علماء المالكية إلى استنباط مجموعة أحكام مفاد بعضها: "فمن اعتدى عليهم، أي... ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الإذابة أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله وذمة الإسلام" ويتابع القرافي قائلا: "حاكيا عن ابن حزم في مراتب الإجماع أنه من كان في الذمة وقصده العدو في بلادنا وجب الخروج لقتالهم حتى نموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ: لأن تسليمه إهمال لعقد تلك الذمة..."⁸.

وبتصفح وثائق الأحباس المسجلة في الحوالات نعثر على أمثلة تحكي أريحية ونبل مواقف ملوك الدولة العلوية الشريفة وما موقف محمد الخامس - تغمده الله برحمته - من حكومة فيشي الفاشية حينما طلبت منه تسليم اليهود المغاربة إلا خير مثال لما ذكر⁹، وإذا بحثنا قبل محمد الخامس في تاريخ جده المرحوم المولى الحسن الأول نجد كثيرا من الوثائق والظواهر التي تنم على أريحية هذا السلطان الذي كان عرشه فوق صهوة جواده، من ذلك مراسلاته لناظر أوقاف ثغر طنجة الطالب عبد القادر أحرضان نقتبس منها:

4 - سورة الممتحنة، الآية 8.

5 - سنن أبي داود.

6 - صحيح ابن حبان.

7 - معجم السيوطي.

8 - عبد الله بن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ص 624-665.

9 - Med V et les juifs du Maroc à l'époque de Vichy ed. plon 1997. Robert Assaraf.

مؤسسة إمارة المؤمنين وعلاقتها برعاياها المغاربة

ذ. محمد بن عبد الجليل
كلية الآداب سايس-فاس

يجدر بنا قبل أن نخوض في دراسة بعض الظواهر والوثائق والأوامر المطاعة التي أصدرها ملوك الدولة العلوية الشريفة في شأن شريحة من مواطني المغرب ذوي الديانة اليهودية، يجدر بنا أن نقف على المفهوم الدلالي والاصطلاحي لإمارة المؤمنين وما يصاحبها من مصطلح تترتب عنه البيعة أو العهد.

فالببيعة لغة¹: هي الطاعة والمعاقدة والمعاهدة كأن كل واحد من المتبايعين باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه ودخيلة أمره.

واصطلاحاً: العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه من الأمر، على المنشط والمكروه وتتأكد معرفته - المبايع - بحق المسلم وما يلزمه من حق سلطانه وإمامه لئلا تكون أفعاله عبثاً².

لقد استعمل الصوفية كلمتي العهد والبيعة بمعنى واحد وعلى هذا اصطلاحوا على مبايعة المريد للشيخ وسموها بالبيعة الصغرى قياساً عما تحكيه كتب السيرة المطهرة من أن المسلمين بايعوا أميرهم كما بايعوا نبيهم مبايعة الطاعة والإمارة لتدبير شؤونهم الدينية والدنيوية.

ولما كان الرسل قد عصموا فلا يأمرهم بمعصية ولما كانت بيعة السلاطين كبيعتهم على الطاعة بالمعروف لا بالمعصية ظلت مطوقة لعنق من بايعهم حتى يلقي الله فتصير البيعة لازمة وهي ما يعرف في الشرع بالبيعة الكبرى.

ولقد ذهب كثير من المفسرين إلى القول عند وقوفهم على الآية الكريمة: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله"³ كانت سبباً لنزولها بيعة الرضوان ولما كانت العبرة بعموم اللفظ شملت مبايعة

1- أبو القاسم جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، القاهرة، طبعة أوروفاند 1935م، ص 57.

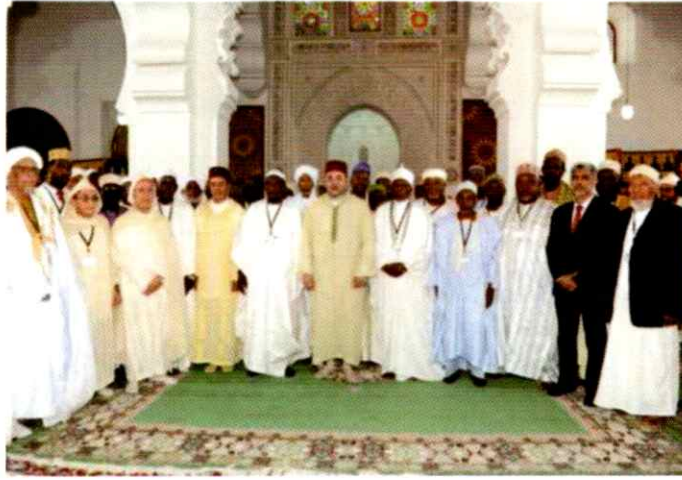
2- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، تحقيق كارتر هيد، مكتبة لبنان بيروت 1984م، ص 209. بتصرف.

3- سورة الفتح، الآية 10

تقدّم بناء العمران والإنسان وفق الثوابت الدينية التي تقاسمها المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء الصديقة رداً من الزمن.

وقد رحّبت عدد من دول إفريقيا جنوب الصحراء الصديقة بمبادرات جلالة الملك محمد السادس الإصلاحية مُعلنة تجديد الاتصال ببوصلة الأمن الروحي المغربية الأصيلة، مؤمنة بأنها خير وجهة تحقق الانفصال عن أطروحات الكراهية والدمار المحرّفة لتعاليم الإسلام السمحة، الذي تكتوي بنيرانها عدد من دول العالم الإسلامي اليوم.

وقد جنت -ولله الحمد- هذه الدول الإفريقية ثمرات تجديد الاتصال الروحي بالمملكة المغربية وتعزيزه، فأضحى الفكر المتطرف في هذه الدول ومحيطها منعزلاً ومحاصراً يبشر بالأفول والاندساس.



(الصورة من موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)

ومن أهداف هذه المؤسسة الشريفة⁸:

- توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين، بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية، للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها.
 - القيام بمبادرات في إطار كل ما من شأنه تفعيل قيم الدين السمحة في كل إصلاح تتوقف عليه عملية التنمية في إفريقيا سواء على مستوى القارة أو على صعيد كل بلد.
 - تنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي.
 - توطيد العلاقات التاريخية التي تجمع المغرب وباقي دول أفريقيا والعمل على تطويرها.
 - التشجيع على إقامة المراكز والمؤسسات الدينية والعلمية والثقافية.
 - إحياء التراث الثقافي الإفريقي الإسلامي المشترك من خلال التعريف به ونشره والعمل على حفظه وصيانته.
 - ربط الصلات وإقامة علاقات التعاون مع الجمعيات والهيئات ذات الاهتمام المشترك.
- كانت هذه أهم المرتكزات المتكاملة التي قامت عليها جهود المملكة المغربية لتحقيق الأمن الروحي بالقارة الإفريقية بقيادة أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله وأيده، وتروم كما

8 - انظر الظهير الشريف المتعلق بإحداث هذه المؤسسة رقم 1.15.75 الصادر في 7 رمضان 1436هـ (24 يونيو 2015م).

- تاريخ البلد الأصلي للإمام ومؤسساته المحلية.
- تطبيقات في الإمامة والإرشاد والخطابة.



وقد بلغ عدد الطلبة الإجمالي بالمعهد 1332 طالبا برسم سنة 2018م.

ثالثا: مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بفاس⁶

تعتبر من أبرز المؤسسات الرسمية التي تعمل على استتباب الأمن الروحي بالقارة الأفريقية، ويضم مجلسها الأعلى عشرات العلماء والقادة الدينيين من ثلاثين دولة إفريقية أشرف على تعيينهم أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم الثلاثاء 08 رمضان 1437هـ، موافق 14 يونيو 2016م بجامع القرويين بفاس، ومن بين هذه الدول السنغال والكويت ديفوار ومالي وغينيا بيساو وغينيا كوناكري، والسودان والصومال ونيجيريا وغانا والكاميرون، وموريتانيا وإثيوبيا ونيجريا وجنوب إفريقيا وغيرها، بالإضافة إلى طائفة من علماء المغرب⁷.

6 - انظر جميع المعلومات المتعلقة بهذه المؤسسة في الظهير الشريف رقم 1.15.75 الصادر في 7 رمضان 1436هـ (24 يونيو 2015م)، والمنشور بموقع المؤسسة: <http://www.habous.gov.ma/fm60a>

7 - انظر موقع المؤسسة: <http://www.habous.gov.ma/fm60a>



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

ثانيا: تأطير القيميين الدينيين الأفارقة بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات بالرباط⁵:

يهدف هذا المعهد الذي دشّنه أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس في السادس من جمادى الثانية سنة 1436هـ، موافق 27 مارس 2015م، إلى الحفاظ على الثوابت الدينية والروحية للمملكة المتسمة بالوسطية والاعتدال، والمرسّخة لقيم التسامح والتعايش، والمحصّنة من نزعات التطرف. ومن أهم المهام المناطة بهذا المعهد المبارك:

- تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات وتمكينهم من المناهج والمعارف التي تؤهلهم للقيام بالمهام الموكولة إليهم.

- تكوين وتأهيل واستكمال تكوين القيميين الدينيين الأجانب المنتمين إلى البلدان التي تشارك مع المغرب في المرجعية الروحية، مع احترام المقومات الخاصة بكل بلد يتكون منه أئمتهم.

ويتم في هذا المعهد تفويض الطلبة الأجانب حسب بلدانهم ويتلقون تكوينهم حسب برنامج يتضمن:

- أساسيات العلوم الدينية الضرورية للإمام.

- اللغات.

- بعض العلوم الإنسانية الضرورية.

5 - انظر جميع المعلومات المتعلقة بهذا المعهد في الظهير الشريف رقم: 1.14.103 الصادر في 20 رجب 1435هـ (20 ماي 2014م) والمنشور في الجريدة الرسمية، عدد: 6268، 28 شعبان 1435هـ (26 يونيو 2014م)، صص. (5470-5473).

وفي يوم الجمعة 04 جمادى الآخر 1438هـ، الموافق 03 مارس 2017م، أدى أمير المؤمنين رفقة الرئيس الإيفواري صلاة الجمعة بالمسجد الكبير لحي ريفيرا كولف بأبيدجان.
وعقب صلاة الجمعة، تفضل أمير المؤمنين بإهداء هبة عبارة عن 10 آلاف نسخة من القرآن الكريم، من ضمنها 8000 نسخة مترجمة إلى اللغة الفرنسية، إلى المساجد الإيفوارية، تسلمها رئيس المجلس الأعلى للأئمة بكوت ديفوار السيد أبوبكار فوفانا.
بعد ذلك، حَيَّ الأئمة الإيفواريون خريجو الفوج الأول لمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات، أمير المؤمنين، وعددهم 99 إماماً والذين أعربوا عن امتنانهم وعرفانهم لجلالة الملك نصره الله.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

ثم أشرف أمير المؤمنين والرئيس الإيفواري على إعطاء انطلاقة أشغال بناء مسجد محمد السادس بحي تريشفييل في أبيدجان.
وسيمتد هذا المسجد على مساحة 25 ألف متر مربع، وسيضم قاعتين للصلاة للرجال والنساء، وطاقة استيعابية تقدر بأزيد من 7000 من المصلين، ومكتبة وقاعة للندوات، وجناحاً إدارياً ومدرسة قرآنية، وسكناً للإمام، ومركباً تجارياً، وموقفاً للسيارات، وكذا فضاءات خضراء.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وأشرف أمير المؤمنين في اليوم نفسه على إعطاء انطلاقة بناء مسجد محمد السادس بكوناكري. وذكر بلاغ لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية أن هذه المعلمة الدينية والثقافية تمتد على مساحة هكتار واحد، وتضم قاعة للصلاة تتسع لأزيد من 3000 مصلي ومصلية، ومكتبة، وقاعة للمحاضرات، وجناحا إداريا، ومدرسة قرآنية، وسكنا للإمام، ومرآبا للسيارات، ومناطق خضراء.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وفي يوم الجمعة 26 جمادى الأولى 1438هـ، موافق 24 فبراير 2017م، أدى أمير المؤمنين رفقة
رئيس الجمهورية الغينية صلاة الجمعة بمسجد أهل السنة والجماعة بالعاصمة كوناكري.
وعقب الصلاة تفضل أمير المؤمنين بإهداء الجهات المكلفة بتدبير الشؤون الدينية بجمهورية
غينيا (كوناكري) 10 آلاف من نسخ المصحف المحمدي، وتقدّم الأئمة الغينيون خريجو الفوج الأول
من معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، وعددهم 114 إماماً و19 مرشدة
للسلام على جلالة الملك وتقديم تحية الامتنان له.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وفي يوم الجمعة 25 صفر 1438هـ، موافق 25 نونبر 2016م أدى أمير المؤمنين صلاة الجمعة بمسجد أنتاناناريفو بمدغشقر، وتفضل جلالته عقب الصلاة بهبة ملكية من المصحف المحمدي لتوزع على مختلف مساجد مدغشقر.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وفي اليوم الثاني من ربيع الأول 1438هـ، موافق الثاني من دجنبر 2016م أدى أمير المؤمنين رفقة الرئيس النيجيري صلاة الجمعة بالمسجد الوطني بأبوجا، ثم تفضل جلالته بعد الصلاة بإهداء الجهات المكلفة بتدبير الشأن الديني بجمهورية نيجيريا 10 آلاف من نسخ المصحف المحمدي قصد توزيعها على مساجد الجمهورية.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وفي يوم الجمعة 11 صفر 1438هـ، موافق 11 نونبر 2016م أدى أمير المؤمنين حفظه الله - صلاة الجمعة بالمسجد الكبير بدار- السينغال، وبعدها تفضل جلالتة بإهداء الجهات المكلفة بتدبير الشؤون الدينية بالسنغال 10 آلاف نسخة من المصحف الشريف في طبعته الصادرة عن مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف قصد توزيعها على مساجد الجمهورية السنغالية.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وفي يوم الأربعاء 23 صفر 1438هـ، موافق 23 نونبر 2016م، زار أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس "مسجد أنتسيراى"، بمدغشقر، وتفضل جلالتة فأطلق عليه اسم جده المنعم جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه.

أولاً: زيارة أمير المؤمنين للبلدان الإفريقية الصديقة وتجديد الروابط الروحية المشتركة معها؛ وذلك من خلال أداء جلالاته صلاة الجمعة بعدد من دول جنوب الصحراء، وتفضله بإهداء الجهات المكلفة بتدبير الشأن الديني بهذه البلدان آلاف النسخ من المصحف المحمدي وفق رواية ورش عن نافع الأصيل، ثم تفضل جلالاته بالإشراف على بناء وترميم عدد من المساجد بهذه البلدان⁴.
ففى يوم الثلاثاء 23 محرم سنة 1438هـ، موافق 25 أكتوبر 2016م أعطى أمير المؤمنين انطلاقة أشغال بناء مسجد محمد السادس بدار السلام بتنزانيا.
ويضم هذا المسجد، الذي سيشتيد على مساحة 7400 متر مربع، قاعة للصلاة تتسع لأزيد من 5000 مصل ومصلية، ومكتبة، وقاعة للمحاضرات، وجناحاً ثقافياً وإدارياً، ومرآباً للسيارات ومناطق خضراء.



(الصورة من وكالة المغرب العربي للأنباء "MAP")

وبعد يومين من التاريخ المذكور أذى أمير المؤمنين محمد السادس صلاة الجمعة بمسجد الشورى بزنجبار مع رئيسها السيد محمد على الشين بجمهورية تنزانيا الاتحادية. وتفضل أمير المؤمنين بعدها بإهداء الجهات المكلفة بتدبير الشأن الديني 10 آلاف نسخة من المصحف المحمدي الشريف.

4 - انظر تفاصيل ما يأتي من كرونولوجية جهود أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس الإصلاحية للشأن الديني بالقارة الإفريقية (2016-2017م)، وجميع الصور الموثقة لهذه الجهود، في موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: www.habous.gov.ma ضمن ركن: آخر المقالات.

هذه المنظومة الدينية المنضبطة جعلت المغاربة على مرّ التاريخ مُتَّسِمِينَ بالانفتاح على الرأي الآخر، والتَّسامح مع المُخالفين سواءً المُتَمِّين منهم إلى المذاهب الإسلامية الأخرى، أو المُتَمِّين إلى مُخْتَلَفِ الملل والنحل والإيديولوجيات.

ثم إن هذا الاختيار الموفق حقّق الانسجام بين عُرى الدِّين الثلاث، وجنب المغاربة فتن الطائفية، وتطرف اللامذهبية التي ما تزال بعض الدول الإسلامية تكتوي بجحيمها.

وما كان لهذا الاختيار أن يستمرّ دون جهود أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس -حفظه الله- الممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها، حامي حمى الملة والدين، الذي انتهج نهج أسلافه الميامين في الحفاظ على المرجعية الدينية للأمة المغربية، معتمداً أنجع المسالك التقريبية، وأحدث الوسائل التكنولوجية، فأهل المملكة المغربية لتكون أنموذجاً دولياً يُقْتَدَى به في حُسن تدبير الشأن الدِّينيّ، وتحصينه من الغلو والتطرف بمُخْتَلَفِ أنواعه.

كما حافظ جلالته على الروابط التاريخية الروحية المتينة بين المملكة المغربية وعدد من دول إفريقيا جنوب الصحراء الصديقة، من أجل تحصين القارة الإفريقية من مخاطر التطرف والإرهاب ومن الاختراق الفكري والروحي لعدد من التنظيمات المتطرّفة المشوهة لتعاليم الدين الإسلامي السمحة.

فأولى جلالته عناية كبيرة بُغية تقاسم الأمن الروحي الذي تنعم به بلادنا والحمد لله مع هذه البلدان الإفريقية الشقيقة والصديقة؛ وذلك بترميم وتأمين دعائمه المذهبية المشتركة المعبرة عن هوية البلدان الإفريقية، مع الحفاظ على ثقافة هذه المجتمعات وتراثها الحضاري، وهو ما تحث عليه تعاليم ديننا الحنيف؛ قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾¹. وقال صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ². وقال عليه الصلاة والسلام: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»³.

واعتمد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس في هذا الشأن العظيم الذي يعتبر من أهم وأكاد ما يتوقف عليه أمن المجتمعات استراتيجية مُحْكَمَةٌ تقوم على ركائز أهمها:

1 - سورة المائدة، الآية:3.

2 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم: 2446.

3 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم: 13.

من جهود أمير المؤمنين جلال الملك محمد السادس في استتباب الأمن الروحي بالقارة الإفريقية

د. عبد العلي بلامين

باحث بالرابطة المحمدية للعلماء

اقتضت حكمة الباري سبحانه وتعالى أن ينعم المغاربة بالوحدة المذهبية عقدية وفقهية وسلوكية منذ قرون عديدة؛ إذ اختاروا في المعتقدات مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، وفي العمليات مذهب الإمام مالك، وفي الأدبيات طريقة الإمام الجنيّد، وهؤلاء الأعلام - أصحاب المذاهب - وُفقوا في تقريب أحكام الشريعة الإسلامية بما ورثوه عن المصطفى صلى الله عليه وسلم من علم خالص من شوائب الغلو والتطرف، ينفون به عن الشريعة تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

ولم يتمّ اجتماع المغاربة على هذه المذاهب الثلاثة تشهياً أو تبعية، بل لما اختص به كل واحد منها من مزايا؛ فأما مذهب الإمام الأشعري في العقيدة، فتميّز بترسيخ الأحكام العقدية في قلوب الناس استناداً إلى النصوص الشرعية من القرآن الكريم، وصحيح الأحاديث النبوية، وإلى قواطع الأدلة العقلية، فهو بذلك مستند إلى النص الشرعي، وأخذ بمقتضيات العقل الإنساني مناط التكليف، الذي أمر الله عز وجل في غير آية بتوظيفه في التأمل والتدبر والنظر المفضي إلى معرفته سبحانه وتعالى، كما مدح جل وعلا المتعقلين أولي الأبواب في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم.

وأما مذهب الإمام مالك في الفقه، فتميّز بمرونته ووسطيته، وبقابليته لاستيعاب الجزئيات المستجدة لما يقوم عليه من أصول نقلية، ومن قواعد منتظمة في نسق يجعل منها آلة اجتهادية عقلية متينة، أهلت فقهاء المالكية للتميّز في فنّ التقعيد الفقهي، وفي فقه النوازل الذي يُعنى بالنظر في المستجدات الطارئة اجتهاداً بقصد استنباط الأحكام الشرعية المناسبة لها.

وأما طريقة الإمام الجنيّد في التصوّف فتميّزة بتنمية النفس وتركيتها تحقيقاً لأشواقها وفق قواعد التخلّق بالخلق الحسن مع الخالق سبحانه وتعالى ومخلوقاته التي حث عليها متمم مكارم الأخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين.

خاتمة:

إن تاريخ مغربنا يمثل سلسلة متوالية الحلقات في موضوع البيعة والخلافة وإمارة المؤمنين، يلتحم فيها الحاكم والمحكوم مستشعرين ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم في ظل الالتزام بالحقوق والواجبات حيث أفرزت ثوابت كانت محط إجماع وتعاقد بين الأمير والرعية جعلت المغرب يتميز بخصوصياته، كما جعلت المغاربة ينعمون بالأمن الروحي والاستقرار خلافا لغيرهم، وذلك لأن الخطاب الديني لم يكن يوما منفصلا ولا غريبا عن المشروع المجتمعي. وهو ما صرح به أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله حين قال: "وإذا كنا قد أعلننا عن حرصنا الدائم والمستمر، في أكثر من مناسبة، على تعزيز الأمن الروحي بمملكتنا،... فإننا ما زلنا نؤكد على ضرورة إدماج الخطاب الديني، في صلب المشروع المجتمعي الذي نعمل جادين على إنجازه، لتحقيق التنمية البشرية المنشودة". وذلك لإدراك جلالته أنه لا تنمية دون بعد رוחي وهو ما أكدته قائلا: "... وكما لا يخفى عليكم، فإن أي تنمية للإنسان، لا تأخذ بعين الاعتبار بعديه الروحي والجسدي، تظل ناقصة وبدون جدوى. وبالتالي لن يتحقق معها التوازن المبتغى، والإصلاح المنشود".

حفظ الله أمير المؤمنين بما حفظ به الذكر الحكيم وأقر عينه بولي عهده المولى الحسن وشد أزره بشقيقه المولى الرشيد وحفظه في سائر أسرته الكريمة وشعبه الوفي.

- الكراسي العلمية في علوم القرآن والحديث والتفسير والعقيدة والفقه وأصوله واللغة العربية وعلومها؛

- دروس خاصة بالنساء والأطفال والشباب تلائم احتياجاتهم ومستوياتهم.

- دروس تحفيظ القرآن الكريم وتجويده ؛

- دروس محو الأمية؛

6 - تأهيل أئمة المساجد من خلال مشروع ميثاق العلماء.

لم تغفل الرعاية الملكية السامية القيميين الدينيين بالنظر إلى الدور الحيوي الذي ينهضون به في تأطير المواطنين، وتمثلت هذه الرعاية بالأساس في «ميثاق العلماء» الذي يهدف إلى تحقيق تكوين وتأهيل علمي للأئمة والقيمين الدينيين، البالغ عددهم أزيد من 45 ألف إمام وقيم ديني، يؤطّروهم نحو 1500 عالم من علماء المجالس العلمية، والأئمة خريجي برنامج تكوين الأئمة والمرشدين، إضافة إلى علماء تنتدبهم المجالس العلمية لهذا الغرض، بحيث يتكلف كل عالم بأحد المساجد، ويشرف على تنفيذ المجلس العلمي الأعلى بتنسيق مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وتتضمن محاور التكوين، على الخصوص، ترسيخ ثوابت الأمة المغربية، المحددة في إمارة المؤمنين والعقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني، وكل ما يتعلق بالإمامة من شؤون الصلاة وخطبة الجمعة والوعظ والإرشاد، وقيام الأئمة بتعليم القرآن ومحاربة الأمية،

7 - مؤسسات التعليم العتيق

تماشيا مع الرؤية السديدة لأمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله في مجال إصلاح الشأن الديني، وفي سياق الجهود المبذولة من أجل ضمان الأمن الروحي وتحصين عقيدة الأمة، عرف التعليم العتيق، الذي يشكل سمة بارزة لعراقة وأصالة وتميز المملكة، تحولات إيجابية شتى همت بنياته ومضامينه وأساليبه البيداغوجية، موازاة مع التغيرات الجذرية التي عرفت المنظومة التعليمية برمتها خلال السنوات الأخيرة.

ومما جاء في خطاب لجلالة الملك محمد السادس نصره الله بهذا الخصوص يوم الجمعة 30 أبريل 2004م "... وفي هذا السياق حرصنا على تأهيل المدارس العتيقة، وصيانة تحفيظ القرآن الكريم، من كل استغلال أو انحراف يمس بالهوية المغربية مع توفير مسالك وبرامج التكوين، تدمج طلبتها في المنظومة التربوية الوطنية، وتجنب تخريج الفكر المغلق، وتشجع الانفتاح على الثقافات..."

2 - ولعل المنعطف الجديد في إصلاح الحقل الديني هو إدماج المرأة في حقل الدعوة بصفقتها عضوا في المجلس العلمي الأعلى أو المجالس العلمية المحلية، حيث أبى جلالته إلا أن يكون للمرأة حضور في مؤسسة العلماء تكريما لها وتقديرا لمشاركتها الفاعلة في توعية المجتمع.

ويظهر دور المرأة جليا أيضا في عمل النساء العالمات بالمجالس العلمية اللواتي يقمن بمعالجة مستنيرة، لعدد من القضايا، بأخلاق الشرع حيث يلقي عملهن قبولا وتجاوبا وارتياحا من لدن فئات عريضة من المجتمع، بالنظر إلى ما يحدثه الخطاب الديني الوسطي في قلوب الناس من إحساس بالأمن الداخلي والطمأنينة النفسية.

3 - إحداث هيئة للفتوى :

ولتدعيم التوجيه الديني، أعلن أمير المؤمنين عن إحداث هيئة للفتوى سنة 2005 م ، تضطلع وحدها دون غيرها بإصدار الفتاوى الرامية إلى بيان حكم الشريعة الإسلامية في القضايا ذات الصبغة العامة معتمدة في اجتهاداتها على أصول المذهب المالكي ، وهذا ما أكدته كلمته التوجيهية السامية لهذه الهيئة بقوله : "وتفعيلا لتوجيهاتنا السامية بشأن تحديد مرجعية الفتوى ، التي هي منوطة بإمارة المؤمنين ، أحدثنا هيئة علمية داخل المجلس العلمي الأعلى ، لاقتراح الفتاوى على جلالتنا ، فيما يتعلق بالنوازل التي تتطلب الحكم الشرعي المناسب لها ، قطعاً لدابر الفتنة والبلبل في الشؤون الدينية".

4 - تكوين الأئمة والمرشدين :

ويعول على هذه البرنامج في تكوين أئمة ومرشديات لتدارك الخصاص في التأطير الديني، حيث تستغرق مدة التكوين سنة كاملة، ويفتح في وجه حملة شهادة الإجازة من جميع التخصصات أو ما يعادلها، حيث يتم تخريج 200 إمام ومرشدة، (150 إماما و50 مرشدة) تناط بهم مهمة تأهيل الأئمة والخطباء وتطوير الخطبة وتوجيه الوعظ وتحسين الإرشاد الديني بما يتناسب مع العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي، حيث تخرج لحد الآن نحو 3861 إمام مرشد ومرشدة.

5 - إحياء دور المسجد :

بإلقاء دروس الوعظ والإرشاد بالمساجد ، يلقيها العلماء والوعاظ والمرشديات تتمثل في:

- دروس عامة للتعريف بالمبادئ الأساسية للإسلام في مواضيع الفقه والحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية العطرة والأخلاق والسلوك الإسلامي القويم؛

والحرص على خصوصيات المغرب الثقافية، حتى لا تضحل تحت تأثير كل المشوشات الدخيلة. وبذلك تحفظ كل المقومات التي تتيح الطمأنينة والسكينة والأمن".

علاقة إمارة المؤمنين بالأمن الروحي:

1 - شكلت البيعة على مر التاريخ الإسلامي أهم الركائز التي تنبني عليها شرعية النظام السياسي الذي أبدعه المسلمون، وكانت إمارة المؤمنين إحدى ثمراته، وقد ظلت هذه المنظومة تمثل إطارا جامعاً تلتقي فيه السلطان الروحية والزمنية لدى الحاكم المسلم.

2 - ورد في "دليل الإمام والخطيب" إن وجود: إمارة المؤمنين يشعر المواطن المغربي بأمنه الروحي بسبب ما يجد من ضمان لممارسة حقوقه الدينية، والتعبير عن مواجيدته الإيمانية².

3 - من هذا المنطلق فإن الأمن الروحي يتحقق بفتح الباب للعلماء الربانيين - الذين هم نواب أمير المؤمنين - كي يربوا الأجيال على حب الله تعالى، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب المؤمنين، وحب الأوطان، ويبلغوا بهم درجة الإحسان، مع سعيهم الحثيث لتحقيق العدل والكرامة بين الناس، حتى يكونوا آمنين في سربهم، مُعافين في أجسادهم.

مظاهر عناية إمارة المؤمنين بالأمن الروحي:

إن مظاهر هذه العناية متعددة أذكر منها:

1 - هيكلية الحقل الديني :

تركز الاهتمام بالشأن الديني في السنوات الأخيرة، على الخصوص، على دعم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية التي تمت هيكلتها وأنيطت بها عدد من الاختصاصات الجديدة تمكنها من الإسهام بفعالية في ضمان الأمن الروحي للمغاربة والحفاظ على الثوابت الدينية للأمة بالإضافة إلى تنشيط الحياة الدينية.

وفي هذا السياق أصبح لكل عمالة أو إقليم مجلسه العلمي، فبلغت المجالس اثنان وثمانون مجلساً لتدبير الشأن الديني محلياً.

2 - دليل الإمام والخطيب والواعظ ص 38.

إمارة المؤمنين: المفهوم والآثار:

1 - يقصد بإمارة المؤمنين في شريعة الإسلام الرئاسة العظمى والولاية العامة الجامعة القائمة بحراسة الدين وسياسة الدنيا. والقائم بها يسمى الخليفة لأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم و يسمى أيضا الإمام ، كما يسمى أمير المؤمنين أو ولي الأمر أو السلطان الذي يقوم بشؤون الرعية بما يصلحهم دنيا وآخرة.

2 - ما يترتب على هذا المصطلح:

إن مصطلح إمارة المؤمنين مصطلح يرتبط أساسا بمقدمات منها:

أ - الانطلاق من أن الإسلام دين ودولة،

ب - وأن له نظاما سياسيا يتميز به ،

ج - وأن هذا النظام ليس مستحدثا بل هو ضارب في عمق الزمان، وقد بدأ منذ فجر الإسلام، وكان عمر بن الخطاب أول أمير للمؤمنين بعد وفاة أبي بكر الذي كان يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

د - وأن الأمة استمرت على اعتبار هذا النظام واحترمه على وجه الدوام.

الأمن الروحي: المفهوم والمرتكز:

1 - يراد بـ "الأمن الروحي": أن يعيش الناس فيما يتعلق بأمور دينهم اعتقادا وممارسة في راحة واطمئنان لما هم عليه، بالحيلولة بينهم وبين كل ما يستهدفهم للتشويش عليهم¹.

2 - ارتكازه على أصول الإسلام وهو ما أكدته الرسالة الملكية التي وجهت إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر للمنتسبين للتصوف يوم الجمعة 19 شتنبر 2008م: "إنكم في لقاءكم هذا كطائفة واحدة، مشربكم واحد وقصدكم واحد : خدمة الدين والوطن. أما خدمة الدين، فمنهجكم القويم فيها يتمثل أساسا في الاعتصام بالكتاب والسنة، وإشاعة العلم، وتهذيب النفس بالإكثار من الذكر، يضاف إلى هذا عمل المعروف، وإغاثة الملهوف، وكل أنواع البر. وأما خدمة الوطن فتتمثل أساسا في القيام بالواجب نحو الإمامة العظمى، التي تمثلها إمارة المؤمنين،

1 - دليل الإمام والخطيب والواعظ ص: 111.

إمارة المؤمنين ومظاهر الأمن الروحي

د. فريد الجمالي

عضو المجلس العلمي المحلي لعمالة
مقاطعات ابن امسيك الدار البيضاء.

للحديث عن هذا الموضوع ينبغي التركيز على:

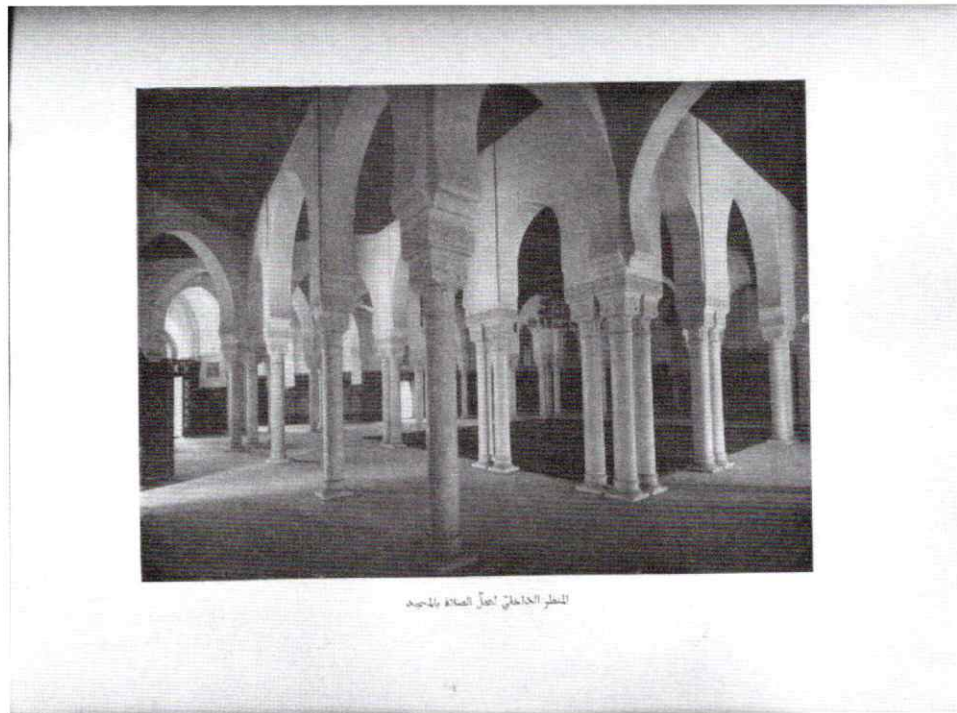
1 - من خلال إمارة المؤمنين تحقق الأمن والاستقرار في المغرب، ووحدة التراب الوطني، وتمت المحافظة على القيم والتقاليد في الوقت الذي ضيعتها بلدان أخرى، فإذا نحن قارنا الإنسان المغربي بغيره نجد لديه عمقا في أصالته وثقافته ومعاملاته وطقوسه وغير ذلك من الأمور، مما يعني أن الاستقرار والاستمرار طبعاً تاريخ المغاربة.

2 - طبيعة نظام البيعة ويتجلى في:

1 - إنه الدعامة الأساس لتثبيت أركان الدولة لأن معظم حكام المسلمين لم يتمكنوا من الإسهام العملي في إرساء قواعد الدولة الإسلامية، والإعلاء من شأنها إلا بعد أن تسلموا مقاليد السلطة بالبيعة الشرعية العامة للأمة، وتقلد الإمارة.

2 - ارتباطها بأداء حقوق المبايعين وهو ما صرح به صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني -طيب الله ثراه- في خطاب لجلالته بمدينة إيفران بمناسبة ذكرى المسيرة الخضراء بتاريخ 6 نونبر 1981م، حين قال: "المغاربة يبايعون ملكهم منذ التاريخ القديم، منذ المولى إدريس على الكيفية الإسلامية المشروعة المعترف بها والمعروفة من أيام النبي صلى الله عليه وسلم، يبايعون ملكهم بيعة الرضوان، ولكن مقابل تلك البيعة، الملك كذلك يبايع في شكله المغاربة، وذلك حينما يتعهد بضمان حقوقهم، وأول حق عند المغاربة هو الاستمرار في مغربيتهم" وأكد ذلك مينا تلاحم الملك مع شعبه فقال: "إن البيعة أخذ وعطاء والتزام متبادل يعبر عن تعلق القاعدة بالقمة، وتعلق القمة بالقاعدة على حد سواء.

3 - إن المغاربة من شمال المغرب إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه وبكل نواحي مدنه وقراه تمسكوا عبر العصور بالبيعة الشرعية لسلطين البلاد، وكانوا أحرص الناس على كتابة بيعتهم لما في ذلك من معنى الاستمرار والاستقرار والبقاء.





الداخل الدخاني لصل الصلاة بالمسجد
في وسط العمارة الكبيرة قوما من حديد وأحجار مصورة في ماس

الملحق الصور:



المسجد والباب الكبير لحسن بارس
(بمساحة تسمى «دي المرسنة»)



ملاة مولاي يوسف، سادتي الغرب، ومطبعة كائنون ديميرك ريس كمونزة الفرنسية في قصر الباشا
على يمين «دالة» لسمير بشار كودان رئيس المجلس البلدي للمدينة
وقبل بشار ريش كمونزة لسمير بشار كودان رئيس المجلس البلدي للمدينة

سارية وأخرى متران تقريبا، وأرضي مفروش بالرخام الأبيض، وفي وسطها خُصّة كبيرة من الرخام الأبيض الصافي، وعملوا لها تربيعا من عمل الزليج الملون بعمل فاس على دورين، والماء ينبع منها بقوة كاملة. ومن هذه الحلقة تدخل إلى المسجد محل الصلاة، وبجانب المسجد حمام معتبر بني على القاعدة الأرباوية، وله قبة في الدرجة الأولى معتبرة، والجوف كله واحد، وعملوا منه تنافيس يخرج منها البخار في جعاب من النحاس الأصفر في شكل غريب، وبذلك البخار يسخن الحمام، والدرجة الثانية والثالثة مفروشتان برخام أبيض. وإذا خرج الإنسان من الحمام يجد الجلسة الرابعة مفروشة باللحائف وعليها مسانيد للاتكاء والاستراحة، وبجانبها بيت فيه آلة الكتابة لمن أرادها، وتقابلها بيت آخر للحجّام لمن أراد التزيين، وبيوت أخرى لمنافع أخرى خصوصية. وإذا فرغ الإنسان من الاستحمام، يخرج إلى روض صغير فيه أربعة أحواض من النوار، وتقابلها قهوة كبيرة من جملة أملاك المسجد، بكراسيها وفراشها بالزراي والمساند لمن أراد شرب القهوة أو الحليب أو الأتي بعمل رفيع، وجدناها أكثرها إنسان من تونس بكراء معتبر في العام، قدره خمس وسبعون ألف فرنك 75.000. وهذا البناء كله المحتوية عليه هذه الأوصاف، بني في مساحة يكون فيها نحو تسعة عشر مائة متر مربعة على ما قاله لنا المحب الأفضل السيد الحاج محمد بن المهدي الزلايحي الفاسي، الذي كان متصدرا للعمل في تركيب الزليج في المسجد المبارك³².

خلاصة:

يعكس لنا حدث بناء وتدشين المعهد الإسلامي ومسجد باريس، حرص ملوك المغرب على حماية عقيدة المسلمين أينما كانوا، وإقامة شعائر الدين وفروضة، في إطار الاضطلاع بمهام إمارة المؤمنين. ولم تكن ظروف الاستعمار التي أصبح العالم الإسلامي يعيشها منذ أواخر القرن التاسع عشر وطيلة النصف الأول من القرن العشرين، ملوك الدولة العلوية على تحمل مسؤولياتهم الدينية في إطار إمارة المؤمنين. فهذا السلطان مولاي يوسف ظل ثابتا على موقفه المدافع عن الشريعة الإسلامية، متصديا لكل مخططات السياسة الاستعمارية الفرنسية التي كانت تروم النيل منها بإحلال الأعراف والأوقاف القبلية محلها. هذا الثبات جعل الحكومة الفرنسية تُقرُّ بإمامة السلطان المغربي، وتعترف به السلطة الدينية الوحيدة في العالم الإسلامي التي لها القدرة على إمامة المسلمين، وجمع كلمتهم، والدفاع عن عقيدتهم وصونها.

32 - رحلة المشتوكي، ص. 53 - 57.

"إذا سأل سائل عن وصف هذا المسجد الغريب، فإنه مسجد معتبر من كل شيء، شيء، من إتيان عمله وبنائه على الكيفية المغربية التي بنيت عليها مساجد مغربنا، شكل مربع ومرتفع على أربع وأربعين سارية في غاية العلو، وسقفه كله من عمل النجارة البديعة جدا نقشا وكسوة وترخيا، وفي وسطه قبة عالية مثل عمل الستينية عندنا بالمغرب، والسواري دائرة بها مع مقابلة كل حاجة بأختها، ويؤم بالجبس في حيطانه، ومفروش بالرخام الأبيض في أرضه، وعمل له حيطي من الحصر عمل الرباط بالأقواس، ومنبره من خشب بعمل النجارة على أحسن حال، ومحرا به إلى القبلة، مكتوب فوق حزامه قوله تعالى: (فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره)³¹. وفي وسطه تريا كبيرة جدا، معلقة بسلسلة من حديد مذهب، وكؤوس الضوء الكهربائي دائرة به على الترتيب، كؤوس كثيرة جدا. ودار بحائطه كله محمل من العود لوضع بلاغي الناس، بصنعة بديعة، ومن فوق ذلك المحمل، صف واحد من الكؤوس الكبار بالضوء الكهربائي، كل كأس متصل بأخيه، عدد كثير، وجاء ذلك كله على أحسن ما يرام. وهذا وصف المسجد المبارك محل الصلاة نفسه، ولكن مهما تدخل من الباب البراني الذي يلي وجه الشارع، فإنك تدخل على روض كبير جدا، واسع طولا وعرضا، وكله بعمل الزليج الأخضر الفاسي، عمل رفيع، وفراشه كله بالزليج الأخضر على لون واحد، وفيه ثمانية أحواض مغروسين بالأشجار والنوار على اختلاف الألوان والأنواع، وفيه خُصَّتان من الماء بالرخام المرمر الأحمر، طول كل واحدة نحو متر وخمسين سنتيما تقريبا، والماء متدفقة بهما. ثم عملوا أيضا صهريجين اثنين، واحد على يمين الداخل إلى حلقة المسجد، والآخر على يساره، مزجلين بالزليج الأخضر والأبيض على قياس واحد، عامرين بهاء صاف كأنه سبائك الفضة، وزينه ذلك الزليج أي تزيين، طول كل واحد سبعة أمتار في عرض ثلاثة أمتار تقريبا، وفي العمق نحو ستين سنتيما، وجاء ذلك على أحسن حال. وعلى غرب الأيسر، سقاية من ماء ملتصقة بالحائط، ماء بارد حلو كالسلسيل، مسترسل من عنبوب دائما. وفي مقابلة باب حلقة المسجد، قبة عالية جدا، وفيها دُرُجٌ إلى السطح، الذي فيه بيوت للمستخدمين في الجامع مع الأضياف، نحو ستة عشر بيتا على ما قيل. ثم إذا دخلت إلى هذا الروض، يقابلك باب حلقة المسجد، فتدخل إلى هذه الحلقة، فتراها واسعة، ومن أعلاها قرمود أخضر على أربعة صفوف دائرة بها، ومرتفعة على أربعة وعشرين سارية، في أربعة أنباح على حسب ست سواري في كل ربع، بين كل

31 - سورة البقرة، الآية: 143.

وأنه كريم رحيم. ولما فرغ من الخطبة الأولى، جلس على العادة، ثم قام إلى الخطبة الثانية، فحمد الله، وأثنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرضى على الصحابة، ونصر السلطان مولاي يوسف، ودعا له بدعوات حسنة، ودعا لسائر المسلمين، وقرأ بعد ذلك توسلات يتشوّك منها شعر الإنسان، وتقشعر منه جلود أهل الإيوان، ثم ختم بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)²⁸ إلى قوله تعالى (والله يعلم ما تصنعون)²⁹. ثم نزل من فوق المنبر، وتقدم للصلاة، فصلى ركعتي الجمعة، الأولى بأمر القرآن وسورة الإخلاص، والثانية بأمر القرآن وسورة الناس، وبمجرد تسليمه، قام من مجلسه وتأخر وراء، وقعد خلف السلطان بين الوزراء أدبا معه، ثم قرئت الفاتحة على العادة، وختم جلالة السلطان ذلك الدعاء، وقام من مصلاه، وخرج من الباب الخاص الذي كان دخل منه، وضربت الموسيقى على العادة، وتفرقت الناس لحال سبيله³⁰.

هناك خلاف حول هوية الإمام الذي خطب في هذه الجمعة الأولى لافتتاح مسجد باريس، وصلى السلطان؛ حيث كان من المقرر أن يكون أول من يلقي خطبة الجمعة في هذا المسجد، ويصلي بالسلطان، هو العلامة أحمد سكيرج، إلا أن نص الهشتوكي يُصرح بأن الخطيب كان هو ابن الموهوب محمد الملود القسنطيني، علما أن سكيرج كان حاضرا في هذه الرحلة الباريسية!

ج - نظرة على الطراز المعماري لمسجد باريس:

إن اختيار الطراز المعماري المغربي - الأندلسي في بناء مسجد باريس، يحمل أكثر من دلالة واحدة؛ فبعدما كان مُقررا أن يكون تصميمه على النمط المعماري التركي - العثماني في مشروع سنة 1895م، ثم توقف المشروع لأسباب ذكرناها سابقا. وعُهد به إلى جمعية الحرمين الشريفين سنة 1920م، التي حرصت، بتوافق مع السلطات الباريسية، على أن يكون تصميم المسجد من حيث الشكل الهندسي والزخارف والحرف والصنائع التقليدية، مغربيا صرفا، حيث جُلب الصناعات من فاس والرباط ومراكش، للمشاركة في تنميق هذا المسجد وزخرفته. وفي كل ذلك إشارة واضحة إلى اقتناع فرنسا بالنموذج الإسلامي المغربي، المبني على الوسطية والاعتدال، والتعايش وقبول الآخر. وسأفسح المجال هنا، للحاج الهشتوكي ليرافقنا في جولة سريعة داخل المسجد ومرافقه:

28 - سورة النحل، الآية: 90.

29 - سورة العنكبوت، الآية: 45.

30 - رحلة الهشتوكي، ص. 50 - 52.

التي شاركتموننا يا جلالة السلطان، بتشييدها في سبيل العلم والإحسان ومحبة أبناء الجلدة، وفي سبيل علو النظريات وارتفاعها إلى حيث تمتزج أحكام فقهاءكم بتعاليم علمائنا"²⁴.

ومن جهته أشاد السلطان مولاي يوسف في خطابه، باحترام فرنسا لمعتقدات المسلمين، قائلا: "إن في ارتفاع جامع باريس وسموه نحو الزرقاء، لرمزا جليلا إلى ما لمعتقداتنا من الاحترام، الذي لم تكتف فرنسا بمراعاته في البلاد الإسلامية، حتى أرادت أن تضيف إلى ذلك برهانا أقوى وأبهر، هو إعانة إخواننا على أن يشيدوا في داخلية ربوعها معهدا خاصا بشريعتنا المقدسة"²⁵.

أما الافتتاح الديني للمسجد، فقد كان يوم الجمعة ثاني محرم الحرام عام 1345هـ، الموافق لـ 16 يوليوز 1926م، وكانت "هذه أول مرة أذن المؤذن في الصومعة المربعة الزوايا والمحلاة بالزليج الأزرق، ونادى وسط باريس العظيمة قائلا: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح"²⁶. ويصف الحاج الهشوكي هذا الافتتاح قائلا: "واقرب وقت الصلاة، إذا بجلالة السلطان قد ورد، ووجد العسكر مُصْطَفَا على باب المسجد، فحياه بالتحية الملوكية بالموسيقى على العادة، ودخل من الباب الخاص بالملك، ومعه الحاجب وبعض الوزراء، وتقدم أمامه القائد ابن العربي الفراكبي، وتبعه السلطان إلى أن وصل أمام المحراب، فتوجه إلى القبلة وصلى ركعتين وجلس أمام المحراب، ونحن ننظر إليه عيانا، حتى عملت المجانة الساعة الواحدة ونصف، فإذا بالخطيب قد دق ورقى المنبر، وتكلم المنصت بصوت رقيق فنصّت، ورفع وتكلم المؤذن الأول، والثاني، والثالث، ثم قام الخطيب وهو عالم من علماء الجزائر من سكان قسنطينة، ويقال إنه داهية في العلم مشارك في الفنون، وفي جميع الأساليب عند من عرفه، اسمه ابن الموهوب محمد المولود، مفتي المالكية بقسنطينة عمالة الجزائر، فأتى بخطبة رائقة، لطيفة، حسنة، فائقة، وجاء فيها بمواعظ حسنة، أبدع فيها وأغرب، وبالع في تنميق ألفاظها ومعانيها وأعجب، ولا يظن أحد أن غيره يأتي بمثلها، فله ذره وجميع من صلى خلفه وسمع خطبته تعجب في انتظامها في سلك الأدب والصواب، ومن جملة ما يقول فيها: يا مسلمون فعلتم وفعلتم وفعلتم، يا مسلمون توبوا إلى ربكم، وأيقنوا بوقوفكم بين يديه (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا)²⁷.

24 - المصدر نفسه، ص. 115.

25 - المصدر نفسه، ص. 116.

26 - المصدر نفسه، ص. 118 - 119.

27 - سورة آل عمران، الآية: 30.

عُرِضَ عليه القيام بأول ضربة بالفأس لحفر أساس المسجد، إلا أنه اعتذر قائلاً: "ها نحن سنشاهد الضربة الأولى في حفر أساس المحراب الذي سيولي المؤمنون وجوههم شطره في المسجد ابتهالاً لله الواحد الأحد، ومع أني دُعيت للقيام بهذه الضربة الأولى، فإني لا أفعل ذلك، لكوني أرى أن المسلمين خاصة جديرون بالقيام بهذا العمل، وعليه فإني ألتمس من حضرات ممثلي الشعوب الإسلامية الموجودين هنا أن يقوموا بهذا العمل الديني"²². وعُهد إلى المهندس الفرنسي مورييس مانطو بالإشراف على أشغال البناء التي دامت نحو أربع سنوات.

ب - تدشين المعهد الإسلامي ومسجد باريس:

شكّل يوم الخميس فاتح محرم الحرام عام 1345هـ، الموافق لـ 15 يوليوز سنة 1926م، يوماً مشهوداً في تاريخ مُسلمي فرنسا، ففيه وقع افتتاح المعهد الإسلامي ومسجد باريس، وحظي هذا التدشين باحتفال كبير، ترأسه السلطان مولاي يوسف بصفته أميراً للمؤمنين، والرئيس الفرنسي كستون دوميرك، وشارك فيه عدد كبير من الشخصيات السياسية والعسكرية من البلدين، ووفود الدول الإسلامية من المغرب والجزائر وتونس وبلاد الشام ومصر وتركيا وغيرها. وتميز هذا الحفل بإلقاء الخطب والكلمات الرسمية التي أشادت بسياسة فرنسا تجاه الإسلام، وأكدت على متانة الروابط التاريخية التي تربطها بالمسلمين وعمقها. ومن ذلك كلمة رئيس جمعية الحرمين الشريفين قدور بن غبريط، التي تناول فيها أهمية هذا الصرح الإسلامي العظيم، الذي يجسد من الناحية السياسية، الاتحاد الفرنسي - الإسلامي، ومن الناحية الفلسفية، مبدأ حرية الاعتقاد وتعايش الأديان، ومما جاء فيها: "نعم افتتح اليوم المعهد الإسلامي ومسجد باريس، حيث يمكن للمسلمين القاطنين بها أو الواردين عليها من كل فج وصوب، أن يؤدوا - بمحل يعهدونه - فرائض دينهم المقدسة، وأن يجدوا ما ترتاح له أفكارهم [...] على أن هذا المقام المعد لطاعة الخلائق وتنوير البصيرة، لا تجد الشقاشق السياسية إليه سبيلاً، إذ إنما هذا معهد التعارف والوفاق، لا منبع التناكر والشقاق"²³.

ثم تناول الكلمة الرئيس الفرنسي، الذي أكد على مفهوم الاتحاد الفرنسي - الإسلامي، وعلى دور فرنسا في ترسيخ مبدأ حرية الاعتقاد واحترام المعتقدات الأخرى، قائلاً: "هذه البناية الضخمة

22 - روني فايس: مصدر مذكور، ص. 91-92.

23 - المصدر نفسه، ص. 152.

فيه، ويكون ملائماً لعوائدهم ومَدَنِيَّتِهِمْ، ولقد تكاثر عدد المسلمين الواردين لزيارة فرنسا، فحينئذ صار من اللازم أن يجدوا هناك محلاً يمكنهم الاجتماع فيه"¹⁷.

ولتغطية نفقات بناء هذه المنشأة الدينية الإسلامية، تأسست لجن الاكتتاب في مختلف الأقطار الإسلامية، وحازت الإيالة الشريفة قصب السبق في ذلك، حيث قُدِّرَت مساهمتها في هذا المشروع بنحو ثلاثة ملايين فرنك فرنسي.

كما قررت بلدية باريس التبرع بقطعة الأرض التي بُني عليها المشروع، والتي بلغت مساحتها نحو 7424 متر مربع، بالمحل المعروف بمستشفى الشفقة القديم، الكائن بين زنقة جوفروي سان تيلير وزنقة دوبانتون وكاترفاج¹⁸. إلى جانب منح جمعية أوقاف الحرمين الشريفين إعانة مالية للبناء قدرها 1.620.000 فرنك. وعن هذا الموقع يقول المسيو أوطران والي مقاطعة السين: "فنهني أنفسنا على أن المعهد الإسلامي سيبنى بعيداً عن نقطة من النقط التي فيها باريس العصرية، كأن الإسلام هو اكتشاف جديد لنا، بل سيبنى في جهة قديمة التاريخ مجاوراً لآثار لوتيس القديمة، وقريباً من جزيرة المدينة التي دائرتها الصغيرة كانت في هي نفس دائرة مدينة الكولواز، وقريباً أيضاً من قصر القيصر جوليان، ومن صومعة الملك كلوفيس، ومن مآثر سور فليب أوكيست، وقصر سان لوي"¹⁹. واشترطت بلدية باريس على الجمعية أن تتعهد ببناء معهد إسلامي في الأرض المشار إليها؛ به مسجد، وخزانة للكتب، وقاعات للمحاضرات، ودار للضيافة، ومساكن للموظفين المسلمين، وحمام يكون مفتوحاً لجميع سكان باريس²⁰.

وفي فاتح مارس سنة 1922م، نُظِمَ حفل رسمي لتعيين قبلة المسجد، حضره رئيس جمعية أوقاف الحرمين الشريفين قدور بن غبريط، وجَمُّ غفير من المسؤولين الفرنسيين وأعيان المسلمين. وقد ترك لنا محمد بن عبد السلام السايح، نصاً فريداً يؤرخ لهذا الحدث الهام²¹. وفي يوم 19 أكتوبر من سنة 1922م، أعطيت انطلاقة أشغال البناء بحضور قدور بن غبريط والماريشال ليوطي، الذي

17 - فايس: مصدر مذكور، ص. 56.

18 - المصدر نفسه، ص. 64.

19 - المصدر نفسه، ص. 81.

20 - المصدر نفسه، ص. 65.

21 - انظر: "أسبوع في باريس (1922م)، تحقيق وتقديم سليمان القرشي، منشورات مركز ارتياد الآفاق، دار السويدي للنشر والتوزيع بأبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت، الطبعة الأولى، 2004م.

بعد غد إن شاء الله¹⁴. وفي يوم 14 يوليوز حضر السلطان مولاي يوسف إلى جانب رئيس الجمهورية الفرنسية الاحتفالات الرسمية بالعيد الوطني لفرنسا.

2-1- تدشين المعهد الإسلامي والمسجد ببباريس:

أ - المحطات التاريخية لبناء مسجد باريس:

إن فكرة بناء مسجد بفرنسا، فكرة قديمة تعود جذورها إلى القرن 13م، حيث توجد بقايا آثار مسجد بمقاطعة الأردن قرب مدينة بوزانسي كان شيده المحارب بيير دانكلير كنيظ دي بوزليمون، اعترافا منه بجميل العرب الذين أطلقوا سراحه بعد أن أسروه في أوائل القرن 13م. وفي القرن التاسع عشر الميلادي، وبعد أن صارت فرنسا على احتكاك مباشر مع المسلمين في مستعمراتها بالجزائر وتونس وسوريا ولبنان، برز مشروع بناء المسجد من جديد سنة 1849م على يد الشركة الشرقية الجزائرية الاستعمارية، إلا أن وفاة رئيس لجنة إفريقيا الفرنسية، هاري أليس، التي عهد إليها بتنفيذ المشروع، حال دون ذلك. ثم أعيد إحياء المشروع سنة 1895م على يد جول كامبون الوالي العام بالجزائر، وحظي بموافقة السلطان العثماني وخديوي مصر¹⁵، إلا أن تنفيذه توقف سنة 1896م. وفي سنة 1920م عهد بالمشروع إلى جمعية أوقاف الحرمين الشريفين¹⁶، التي يرأسها قدور بن غبريط مدير تشريفات السلطان مولاي يوسف، وسخرت لها الإمكانيات الفنية والمادية الكفيلة بإنجازه، ومن ذلك، قرار الحكومة الفرنسية منحها 500.000 فرنك فرنسي كمساعدة لبناء معهد إسلامي ببباريس، اعترافا منها بالتضحيات الجسيمة التي قدمها مسلمو شمال إفريقيا لفرنسا في الحرب العالمية الأولى: "اعترافا بالجميل نحو أبنائها المسلمين الذين أظهروا إخلاصا تاما أثناء الحرب، وأتوا مسرعين للدفاع عن وطننا، فكان من المناسب الاعتراف لهم بالجميل مرة أخرى، والإعانة في إنجاز مشروع يتمناه المسلمون الفرنسيون والمسلمون المحميون، ألا وهو تأسيس معهد إسلامي ببباريس يجتمعون

14 - روني فايس: مصدر مذكور، ص 45.

15 - كان مقررا أن يكون تصميم هذا المسجد على الطراز المعماري التركي العثماني.

16 - تأسست هذه الجمعية بإيعاز من فرنسا يوم 13 فبراير 1917م، بهدف شراء دارين بمكة والمدينة، لإيواء الحجاج الفقراء القادمين من المستعمرات الفرنسية بإفريقيا. وهي تتركب من أعيان المسلمين القاطنين بالجزائر وتونس والمغرب وإفريقيا الغربية الفرنسية. حيث ضمت من المغرب؛ الصدر الأعظم والحاجب ووزير العدلية وقضاة فاس وعلما جامع القرويين، ومن الجزائر؛ قضاة ومفتون وباشا أغوات ورئيس النيابة العربية، ومن تونس؛ مشايخ المذهب الحنفي والمالكي ووزير القلم وشيخ مدينة تونس.

طولون يوم 11 يوليوز، استقلَّ جلالة السلطان قطارا خاصا إلى باريس، حيث وجد في صدارة مستقبله بمحطة إليون، فخامة الرئيس الفرنسي كستون دوميرك، ويصف الهشوكي هذا الاستقبال قائلا: "وفي يوم الاثنين فاتح محرم الحرام المفتتح به عام 1345هـ على الساعة العاشرة وأربعين دقيقة صباحا موافقا 11 جوليت سنة 1926م، نزل جلالة السلطان مولانا يوسف نصره الله في الأگار المسمى بأگار إليون بباريز، المعداد لنزول الملوك قديما عند ورودهم إلى باريز، وكان لذلك اليوم رتبة كبيرة، وهيبة شهيرة، وقام له احتفال عظيم، حضر فيها رئيس الجمهورية بنفسه ابريزدان، مع رئيس الوزراء وجميع أعضاء الدولة الفرنسية وكبارتها، مثل مارشان بتان، ومسيو استيغ المقيم العام اليوم بالمغرب، وغيرهم من المريشالات والجنرالات الكبار، مثل جلنار كروا الذي كان مقيما عاما بالمغرب سابقا، وغيره من الناس الكبراء الذين لهم بال في الرأي والتدبير والسياسة. وحضر أعيان المغرب كلهم من الذين كانوا مسافرين معنا لأجل هذا الصدد، عمالا وقضاة وأمناء وتجارا ورؤساء [...] ورد القطار الذي ركب فيه جلالة السلطان ومن معه من وزرائه الذين جاؤوا معه في رفقته، مثل سي قدور بن غبريط، والصدر الأعظم الحاج محمد المقرري وغيرهم، فأعطيت له التحية أولا بالموسيقى البلدية، ثم بالطناير العسكرية الوطنية، وتقدم رئيس الجمهورية الفرنسية حتى تصافح معه وأدى له التهنية بوصله على جناح السلامة، وتصافح معه بقية أكابر الدولة الفرنسية كما تقدم، وأخذ رئيس الجمهورية بيده وسار به أمام الصف الذي وقف فيه أعيان المغرب، وكل من مر عليه السلطان منهم يقبل على كتفه الشريفة، وهو يشير برأسه نحوهم برّد التحية عليهم، حتى أتى على حد الصف. وخرج من باب الأگار، فوجد سيارته واقفة في انتظاره، فركب عليها وذهب متوجها لمحل نزوله المعداد له قبل اليوم بأيام"¹³.

وفي عشية يوم 13 يوليوز استقبل السلطان مولاي يوسف بقصر بلدية باريس، حيث ألقى خطابا استهله بكلمة شكر وثناء لجمهورية فرنسا وشعبها على حفاوة الاستقبال وكرم الاستضافة، وأعقب ذلك بشكر خاص لبلدية باريس التي وهبت الأرض التي شُيّد عليها المعهد الإسلامي والمسجد، قائلا: "لكن هناك فرض واجب علينا من مدة مديدة وكنا ننتظر لتأديته فرصة زيارتنا اللطيفة، وهذا الفرض هو شكرانكم بصفتنا أمير المؤمنين، وباسم جميع مسلمي بلاد إفريقيا، على هبتكم هذا الموضع العظيم الذي شيدت عليه جمعية أوقاف الحرمين الشريفين المسجد الذي سنفتحه

13 - الحاج الهاشمي الناصري الهشوكي: رحلة إلى فرنسا سنة 1926م مع السلطان مولاي يوسف قصد تدشين مسجد باريس، مخطوط خاص، ص. 29 - 31.

قصد الإشراف على هذا الافتتاح الرسمي إلى جانب الرئيس الفرنسي آنذاك كستون دوميرك ((Gaston Doumergue. وأحاطت هذه الرحلة السلطانية بعناية واهتمام فائقين، فهو حدث استثنائي، كما عبّر عن ذلك فايس قائلا: "وقبلت حضرته ذلك الاستدعاء بفرح وسرور، خارقا للعوائد الملوكية المألوفة منذ قرون، وكان سفره المبارك مظهرة لا مثيل لها في تاريخ الإيالة الشريفة [...] وإن سفر السلطان أمير الملايين من المؤمنين، يبرهن على انضمام المغرب إلى الحياة العصرية، وعلى التوفيق بين الترقى والعوائد الإسلامية القديمة"¹¹.

تعكس هذه الرحلة اليوسفية أيضا، اقتناع فرنسا بالنموذج الإسلامي المغربي، المبني على الوسطية والاعتدال والقبول بالآخر، واعتقادها أن هذا النموذج هو الأصلح لمسلمي فرنسا وأوروبا قاطبة، وبهذا الصدد يقول فايس: "ولهذا فإن المغرب يُتمّم لنا ميدان الخبرة والتمرين، لكون بعده عن بقية الأقطار وأقدميته، تقربه إلى القرون التي كان الاعتقاد فيها صافيا، وخصوصا باعتبار السلطة العظيمة الحائز عليها السلطان الأسعد، ألا وهي سلطته الدينية، التي هي وحيدة في هذا العالم الإسلامي، لكونه شريفا أصيلا من أبناء النبي، زيادة على سلطته المدنية التي هي كذلك عظيمة هنالك"¹².

لقد استطاع ملوك المغرب، بفضل إمارة المؤمنين التي يضطلعون بمهامها ومسؤولياتها، الحفاظ على الهوية الإسلامية للمغاربة، وصيانة الشرع الإسلامي، والإبقاء على حُمة الشعب، في مواجهة مخططات السياسة الاستعمارية، التي كانت تستهدف تفكيك وحدته، تمهيدا لإدماجه والسيطرة عليه.

2 - رحلة السلطان مولاي يوسف إلى فرنسا سنة 1926م لتدشين مسجد باريس:

جاءت هذه الرحلة -كما أسلفنا الذكر- تلبية للدعوة الرسمية التي وجهتها الجمهورية الفرنسية للسلطان مولاي يوسف. وانطلقت من ميناء الدار البيضاء يوم 7 يوليوز 1926م، على متن الباخرة الحربية "باريس". ورافق السلطان في هذه الرحلة إلى جانب الوفد المغربي -الذي ضم عددا من الوزراء يتقدمهم الصدر الأعظم محمد المقرئ، والحاجب السلطاني التهامي عبابو، ووزير المالية الحاج عمر التازي، والبشوات والقواد والأعيان- المقيم العام تيودور ستينغ. وبعد الوصول إلى ميناء

11 - روني فايس: اقتبال جلالة مولاي يوسف سلطان المغرب الأقصى بقصر البلدية بباريس، افتتاح المعهد الإسلامي ومسجد باريس، تعريب، عبد السلام بن يوسف، المطبعة الدولية بباريس، 1927م، ص. 25 - 26.

12 - المصدر نفسه، ص 22.

أمير المؤمنين، وسبط الرسول الأمين، وحامي حمى الملة والدين. يستمد مشروعيته من البيعة، الأمر الذي يُكسبه قوة رمزية تجعله يسمو فوق الجميع. وإذا كان الماريشال ليوطي، قد استطاع الحفاظ - في إطار سياسته الأهلية - على نوع من التوازن في علاقته بالسلطان، من خلال عدم المس بمكانته الدينية. فإن خَلْفَهُ المقيم العام ستيج، فشل في ذلك فشلا ذريعا، ودخل في مواجهة مع السلطان مولاي يوسف، الذي ضل متشبثا بسيادته، مُنافحا عن العقيدة الإسلامية، رافضا التوقيع على كل القوانين التي تمس بالشرع والهوية الإسلامية للمغاربة، وتروم التخلي عن تطبيق الشريعة الإسلامية في بعض المناطق والاستعاضة عنها بالأحكام العُرفية؛ ومن ذلك معارضته لسياسة التفرقة، وتصديه الشجاع لتنفيذها، وما يقوم حُجَّةً على ذلك، هو عجز كل من ليوطي (Lyautey) وتودور ستيج (Théodore Steeg) عن تطبيق مضامين "الظهير البربري" في عهد السلطان مولاي يوسف⁷، بحيث لم يظهر ذلك بشكل رسمي إلا في سنة 1930م مع المقيم العام لوسيان سانت. وقد وصلت درجة التشنج والاحتقان بين السلطان والمقيم العام الفرنسي ستيج، إلى درجة قيام السلطان بإبعاده عن القصر، ورفض مقابله والتعاون معه، بل أكثر من ذلك ذهب السلطان إلى مُطالبة الحكومة الفرنسية بعزل ستيج من منصبه⁸. وهكذا لما سُلِّمَ نص الظهير (البربري) للسلطان مولاي يوسف، قابله بمقاومة حادة، مؤكداً أن "كل قبيلة شملتتها التهدة يجب أن تكون خاضعة للشرع الإسلامي، كما هو الأمر في بقية تراب المملكة"⁹. لقد كانت قراءة السلطان لهذا الظهير وتأويله له، مخالفة تماما لقراءة سلطات الحماية الفرنسية وتأويلها له، حيث فَهَمَ السلطان أن الأعراف الجديرة بالاحترام هي التي "تتلاءم مع أسس السيادة ومع الإسلام عقيدة وشريعة، فلم يُرَدَّ أن يجعل للعُرف القبلي التفوق على الشرع، ولا أن يحل محله في أي مكان بأي شكل، كما أنه امتنع دائما من أن يعترف - إلى جانب الشرع - بأعراف مُقَنَّنة في نصوص تجعل منها "مدونة أحكام" تتخذ أساسا لقضاء مستقل عن القضاء الوطني الشرعي والمدني"¹⁰.

وفي سياق جهودها الرامية إلى التخفيف من حدة التوتر بين الطرفين، استثمرت الحكومة الفرنسية، حدث تدشين مسجد باريس والمعهد الإسلامي، لاستدعاء السلطان مولاي يوسف،

7 - محمد حسن الوزاني: مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، مرحلة الانطلاق والكفاح (1930-1934م)، منشورات مؤسسة محمد حسن الوزاني، ط1، بيروت، 1984م، ج3، ص. 55.

8 - علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مؤسسة علال الفاسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط6، 2003م، ص 151.

9 - الوزاني: مذكرات حياة وجهاد، ج3، ص. 56-57.

10 - الوزاني: المصدر نفسه، ص. 53-54.

من ذلك، ومن أراد إتيان دار القنصو للصلاة أو القراءة من أجناس النصارى أيا كانوا، فلا يُتعرَّض لهم، ولا يمنعون من ذلك، وكذلك رعية سيدنا نصره الله إذا دخلوا بلاد الفرنضيص لا يمنعونهم أحد من اتخاذ مسجد لصلاتهم وقراءتهم بأي مدينة كانوا¹. فهذا النص يؤرخ لحرص ملوك الدولة العلوية على رعاية الشؤون الدينية لمغاربة المهجر أينما كانوا، وهو حرص ينبع من القيام بمسؤوليات إمارة المؤمنين، التي يُحددها الشرع، ويُقرُّها العقل، ويُجمع عليها أهل الذكر².

نسعى إلى مقارنة هذا الموضوع من زاوية تاريخية، من خلال دراسة وتحليل رحلة السلطان مولاي يوسف لتدشين مسجد باريس سنة 1926م، وذلك بالاعتماد على مادة مَصْدَرِيَّة تاريخية نفيسة، تتكون من كتاب روني فايس³ الموسوم بـ "اقتبال جلالة مولاي يوسف سلطان المغرب الأقصى بقصر البلدية بباريس، افتتاح المعهد الإسلامي ومسجد باريس"⁴، الذي نشر بالمطبعة الدولية بباريس سنة 1927م، ومخطوط "رحلة إلى فرنسا سنة 1926م مع السلطان مولاي يوسف قصد تدشين مسجد باريس"⁵ للحاج الهاشمي الناصري الهشتوكي⁶.

1- فرنسا الحامية وإمارة المؤمنين:

حرصت فرنسا - أثناء تنزيلها لمعاهدة الحماية المفروضة على المغرب سنة 1912م - على إظهار احترام مؤسسة السلطان، والحفاظ على هيبتها، وعياً منها بمكانة السلطان الروحية عند المغاربة؛ فهو

- 1 - المعاهدة مؤرخة في آخر ذي الحجة الحرام عام 1180هـ الموافق لـ 28 ماي 1767م. انظر: عبد الرحمان ابن زيدان: إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 2008م، ج 3، ص. 316.
- 2 - راجع بخصوص هذا الموضوع مقال الأستاذ عبد الحميد العلمي الموسوم بـ: "إمارة المؤمنين وحضورها الديني والسياسي في النموذج المغربي"، مجلة دعوة الحق، عدد خاص عن ذكرى عيد العرش المجيد، رقم: 418، السنة 59، شوال 1437هـ/ يوليو 2016م، ص. 11 - 19.
- 3 - كان يشغل وقتئذ منصب مدير بولاية مقاطعة السين، ومديرا لمكتب رئيس بلدية باريس.
- 4 - يتألف هذا الكتاب من 145 صفحة من الحجم الكبير، صمَّمه مؤلفه كل الخطب الرسمية التي أُلقيت بمناسبة تدشين استقبال جلالة السلطان مولاي يوسف في قصر بلدية باريس، وبمناسبة تدشين المعهد الإسلامي، كما يشتمل الكتاب على مجموعة من الصور الفوتوغرافية التي تؤرخ لهذا الحدث الكبير.
- 5 - تجدر الإشارة إلى أن هذه الرحلة، تمت ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، وأصدرها مجلس الجالية المغربية بالخارج تحت عنوان: Al Hachimi Naciri Al Hachtouki » Voyage en France (1926)», Traduction Mohammed Saad Zemmyri et Insaf Charkaoui, CCME, Rabat, 2018.
- 6 - هو: الهاشمي بن موماد بن الحسن بن سليمان الهشتوكي، ولد سنة 1294هـ/ 1871م، أخذ القرآن عن أخيه الحنفي، ثم انتقل مراکش حيث أخذ عن العلامة سيدي إبراهيم الكدميوي وغيرهم، عينه القائد الطيب الكتتافي كاتباً خاصاً به، وكان يرافقه 20 في كل تنقلاته وأسفاره، فقد رافقه إلى باريس عندما استدعاه السلطان مولاي يوسف لحضور تدشين مسجد باريس سنة 1926م. توفي سنة 1354هـ/ 1936م. انظر: محمد المختار السوسي: المعسول، مطبعة الشمال الإفريقي، الرباط، 1961م، ج 10، ص. 36.

إمارة المؤمنين ورعاية الشؤون الدينية لمغاربة المهجر في عهد الحماية

"رحلة السلطان مولاي يوسف لتدشين مسجد باريس سنة 1926م"

ذ. محمد الأندلسي

أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر - تطوان

غني عن البيان الدلالات الروحية لبناء المساجد وتشييدها وعمارتها، والاهتمام بتكوين القيميين الدينيين المشرفين عليها، كالحفاظ على عقيدة المسلمين، وتوفير الفضاءات والأماكن الروحية القمينة بممارسة الشعائر الدينية التعبدية، ونشر العلم والمعرفة الدينية الصحيحة، المبنية على تعاليم الإسلام السَّمحة، التي تنبذ التعصب والغلو المفضي إلى التطرف والحائد عن مبادئ الإسلام وقيمه الإنسانية النبيلة.

وقد اعتنى ملوك المغرب -على مرّ التاريخ- أيما عناية بتشديد بيوت الله، وصيانتها ماديا وروحيا، فإذا اقتصر هذا الاهتمام في مراحل تاريخية مُعينة على دار الإسلام، فإنه في مراحل أخرى لاحقة، انسحب حتى على دار العهد من بلاد النصارى، خاصة عندما فرض الواقع الاقتصادي والسياسي على الدولة المغربية الانفتاح على الآخر المغاير في الملة والعقيدة، والتبادل معه، والاستفادة من تجربته الحضارية. ولعل أول من أسس فكرة بناء مسجد في أوروبا من ملوك الدولة العلوية، هو السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي ضَمَّن معاهدة الصُّلح التي أبرمها مع نظيره الفرنسي لويس الخامس عشر عام 1767م، شرط السَّماح للرعايا المغاربة في فرنسا بتشديد مسجد لإقامة شعائر الدين وقراءة الكتب الدينية في أية مدينة كانوا، حيث جاء في الشرط الحادي عشر من تلك المعاهدة ما يأتي: "للقنُصُواتِ المذكورين [الفرنسيين] أن يتخذوا بدُورهم موضعا لصلاتهم وقراءتهم، ولا يُمنعون

مما تقدم ندرك بما لا يدع مجالاً للشك أن إمارة المؤمنين حققت للمغرب ولشعبه كل ما تصبو إليه الدول من الوحدة والأمن والاستقرار والرفاهية والتقدم في مختلف المجالات بسبب التزامهم بهذا النظام، وبسبب إدراك الحاكم والرعية للمسؤولية المشتركة بينهما، فلا نستغرب هذا التلاحم الذي نشاهده في المغرب بين الحاكم ورعيته، إنه عمل وعدل وإحسان من قبل الحاكم، وحب ووفاء وولاء من قبل الشعب، فنعم الجميع بالأمن والاستقرار والرفاهية، كل ذلك لم يكن ليتحقق بعد توفيق الله تعالى لولا إدراك أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وشعبه المؤمن للمسؤولية المشتركة في تحقيق مفهوم إمارة المؤمنين وفي التثبث بمستلزماتها، ونسأل الله أن يحفظ للمغرب ولأمتنا وللإنسانية جمعاء جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وأن يديم عليه نعمة الصحة والعافية مع طول العمر ودوام السعادة. وأن يحفظ له ولي عهده الأمين ويبارك فيه، كما بارك في آبائه وأجداده، وأن يحفظ المغرب ويسعد شعبه ويبارك في أرضه في أمن وأمان وسلام دائم مادامت السماوات والأرض، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

2. التشاور المستمر بين العلماء وولاة الأمر والتعاون في كل الأمور الدينية والدنيوية لخدمة البلاد والعباد، اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في مشاورته الدائمة لأصحابه. ويظهر ذلك جليا في إنشاء المجالس العلمية في مختلف مناطق المملكة، والتي تضم خيرة العلماء ويتولى رئاستها العليا أمير المؤمنين شخصيا.
3. ترسيخ مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين بدليل إقرار مدونة الأسرة التي ضمنت لشقائق الرجال ونصفهم المكمل لهم جميع حقوقهن الدينية والوطنية والمدنية.
4. الحرص على القيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وبث الخير بين أفراد المجتمع المغربي وغيرهم، وتعليم الناس الإسلام الصحيح الذي يقوم على الاعتدال والوسطية والخيرية لإسعادهم في الدنيا وإنقاذهم في الآخرة. وما هذه الدروس الحسنية المباركة التي تقام سنويا، وكذلك إنشاء معهد محمد السادس لتكوين الأئمة، ومؤسسة جلالته للعلماء الأفارقة إلا وسائل عملية لتحقيق ذلك.
5. التعاون مع الأشقاء والجيران سواء كانوا من العرب أو الأفارقة أو غيرهم، وكذلك الانتماء إلى المنظمات الإقليمية والدولية لتحقيق المزيد من التقارب والتضامن والتعاون من أجل تحقيق المصالح المشتركة والسلام العالمي.
6. رد الاعتبار إلى الأسر الدينية والعلمية العريقة، وكذلك سلالات الصالحين الذين بذلوا جهودا كبيرة في خدمة الإسلام وإصلاح مجتمعاتهم دينيا واجتماعيا، وكذلك دعم هؤلاء ماديا ومعنويا لتمكينهم من المحافظة على تراثهم العلمي والروحي.
7. الإحسان إلى الناس داخل البلاد وخارجها وتقديم المساعدات الإنسانية إلى علماء الأمة لإظهار احترامهم لكونهم ورثة الأنبياء كما ورد في حديث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. وكذلك مساعدة المحتاجين والمنكوبين في كل مكان تحقيقا لمبدأ التضامن الإسلامي والأخوة الإنسانية.
8. التمسك الشديد بوحدة التراب الوطني المغربي، وعدم التفريط بشبر واحد من أرض الوطن، وهذا الأمر يشكل إجماعا لدى جميع أطراف الشعب المغربي على اختلاف توجهاتهم السياسية والفكرية.

الشيوعي وحزب الشورى، هذا المفهوم الداعي لإقامة «ملكية مقيدة يسود فيها الملك ولا يحكم»، والساعي لمراقبة النظام السياسي لفرض تصوره للحكم³.

وفي افتتاح الدورة الثانية للبرلمان، 24 أبريل 1964م، عكس خطاب الملك الوضع السياسي العام بالبلاد، متوجها بخطابه للنواب البرلمان: "والآن وأنتم تستقبلون دورة جديدة فإننا نأمل أن تكون دورة تفكير واستخلاص للتناج، وتجمعون فيها بين أسلوب النقد البناء وبين المساهمة الفعالة ... إن دوركم الأساسي هو العمل الدائب لمساعدة السلطة التنفيذية بما تقدّمونه من مقترحات القوانين، كي لا يقتصر دوركم على التشهير بنقط الضعف ..."⁴.

وفُتحت أولى جلسات البرلمان في 18 نونبر 1963م، غير أنه "لم يدم إلا نحواً من سنة ونصف سنة عقد فيها أربع دورات لم يتمّ الرابعة منها ودورة استثنائية افتتحت ولم تؤد مهمتها"⁵. ولم يتعد نشاط البرلمان، مناقشة بضعة مشاريع قوانين، مثل قانون توحيد المحاكم وتعريبها ومغربتها (2 يونيو 1964م)، وهو القانون الوحيد الذي صوت عليه بالإجماع، وقانون الضريبة على الأجور، وقانون إحداث محكمة العدل الخاصة، وكذلك تعديل قانون الصحافة، بمنع الأجانب من إصدار صحف بالمغرب، وكان يهدف إلى منع صحف ماس (Le Petit Marocain ; La Vigie Marocaine) وكذلك مناقشة الميزانية لسنة 1964م ثم لسنة 1965م، وتبني التصميم الثلاثي.

غير أن المثير في نشاط البرلمان، هو ملتمس الرقابة الذي أثير من طرف المعارضة في 15 يونيو 1964م، وخلاف الحكومة والمعارضة في ربيع 1964م، حول عقد دورة استثنائية للبرلمان (الفصل 40) وطلب المعارضة على إثره التحكيم الملكي. واقترح تشكيل لجنة للبحث والتقصي، بعد الأحداث المؤلة بالدار البيضاء في 23 مارس 1965م.

ومما أذكى الصراع بين الحكومة والمعارضة، هو أن المناقشات كانت تبث مباشرة على أمواج الإذاعة والتلفزة، لتشارك المواطن العادي في خلافات قانونية وسياسوية معقدة. ويعتبر عبد الكريم

3 - المصدر نفسه، ص. 126؛ كذلك:

Cf. Michel Camau, " L'évolution du droit constitutionnel au Maroc depuis l'indépendance ", *Jahrbuch des öffentlichen Rechts der gegenwart*, No. 21, 1972, p. 390 - 400.

4 - الحسن الثاني، انبعاث أمة، المطبعة الملكية، الرباط، الجزء الرابع، 1964م، ص. 99 - 101.

5 - عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1908 - 1992، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة 1993م، ص. 230.

غلاب أن " الدستور المتحرر نوعا ما هو الذي أتاح للمعارضة هذه القوة"⁶. بالإضافة إلى تمرس المعارضة على الممارسة السياسية، وتوفرها على زعماء خطباء مفوهين أمثال علال الفاسي وعبد الخالق الطريس وعبد الرحيم بوعبيد⁷.

ويرجع فشل التجربة البرلمانية الأولى لسببين، الأول سياسي تمثل في عدم توفر " أغلبية منسجمة وقوية، وتواجد معارضة قوية"⁸. حيث تشكلت الأغلبية من جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية (متكونة من حزبي الأحرار والحركة الشعبية بزعامة أحمد رضا اكديرة) وكان عدد ممثليها يصل إلى 71 نائبا، غير أنها لم تكن منسجمة، وحصل أن صوت نواب الحركة الشعبية ضد الحكومة. بيد أن المعارضة لم تستطع الحصول إلا على 67 نائبا، والتي ضمت حزبي الاستقلال (40 نائبا) وحزب الاتحاد الوطني (27 نائبا)، والسبب الثاني وجود فصول في الدستور لا تعد باستقرار الحياة البرلمانية⁹.

غير أن الصراع داخل البرلمان، وشّل حركته من خلال المواجهات السياسية القوية، بين الحكومة والمعارضة، دفعت الملك لإعلان حالة الاستثناء¹⁰. وربما كان فشل التجربة البرلمانية الأولى، في نظر عبد القادر القادري، يرجع إلى "الخلل الوظيفي للنظام الدستوري، التباين بين القاعدة المعيارية، النص والواقع، حيث أصبح البرلمان ساحة للترشق السياسي"¹¹. ثم إنها أول تجربة برلمانية تخاض ضمن مسلسل الصراع حول السلطة، وبناء دولة عصرية مستقلة.

ثانيا. إقرار حالة الاستثناء

بعد استعراض المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، للظروف العامة للبلاد، والأزمة السياسية التي تعيشها، ومحاولته الخروج من الأزمة السياسية على أساس تشكيل حكومة ائتلافية. وتوقف الاستشارات الملكية مع مختلف الأحزاب السياسية، بعدما تقدمت بأجوبتها

6 - المصدر نفسه، ص. 237.

7 - محمد المرغني، الوجيز في النظم السياسية والقانون الدستوري المغربي، الجزء الثاني، مطبوع 1979، ص. 160.

8 - المصدر نفسه، ص. 60.

9 - Cf. Jacques Robert, " L'Etat d'exception dans la constitution du Maroc ", *Trente années de vie constitutionnelle au Maroc*, L.G.D.J., Paris, 1993, p. 239 - 260 -.

10 - Cf. Abdelkader El kadiri *La Première expérience parlementaire marocain*, Mémoire D.E.S., Rabat, 1972.

11 - Abdelkader El Kadiri, « Regard sur le premier parlement marocain (1963 - 1965) », Représentations, médiation. *Participation dans le système politique marocain*, Mélange Abderrahman Kadiri, Département de droit public et de sciences politiques, Fac. Droit, Rabat Agdal, 1997, p.44 .

المتعارضة. وعدم انسجام الأغلبية، وانقسامها في بعض الأحيان، وهو يعني حزبي الأحرار والحركة الشعبية المشكلة لجهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية¹².

وفي خطاب للمغفور له الحسن الثاني، يحدد فيه الظروف العامة التي أملت، اللجوء إلى إعلان حالة الاستثناء، بعدما سعى "للوصول إلى حلّ يكفل الخروج بالبلاد من الأزمة التي انحدرت إليها وعلى أساس الائتلاف الوطني الذي دعونا إليه في خطاب العرش الأخير... وكان من الطبيعي وقد تعذر تأسيس حكومة ائتلافية أن يطبق برنامج إنقاذ مع أغلبية برلمانية متماسكة واعية لمسؤوليتها... ولكننا لم نجد الأغلبية العددية التي تكون الأداة البرلمانية اللازمة لقيام حكم مستقرّ وبدون الائتلاف الوطني وأمام عدم توقّر البرلمان على أغلبية وجدنا أنفسنا أمام اختيارين: اختيار الوفاء لفضيلة الديمقراطية التي اعتبرناها دائما أفضل السبل وأجدى طريقة للعمل، واختيار نظام تمثيلي يتسم بطابع الجدل غير المثمر..."¹³.

كل هذه الحثيات، قد تفضي لحلّ البرلمان وإجراء انتخابات جديدة، غير أن جلالته "فضل ألا يعرّض البلاد لعثرات عنيفة بمعركة انتخابية مفاجئة. وبما أن البلاد أصبحت تحتاز أزمة حكم وسلطة ومهددة بعدم الاستقرار"¹⁴، وهكذا "وجدنا أنفسنا، يقول جلالته المغفور له الحسن الثاني، أمام حلول كان لا بدّ من انتقاء أنسبها لتدارك الوضع... وبحكم ما نحن مطوّقون به من حالة الانحلال التي تحتازها البلاد أن نستعمل حقنا الدستوري الذي يعطينا جميع الصلاحيات لاتخاذ كل تدبير يفرضه رجوع المؤسسات الدستورية... لقد وضعنا طابعنا هذا اليوم على المرسوم الذي يعلن حالة الاستثناء..."¹⁵.

كان المغفور له الحسن الثاني يسمي مبرر حالة الاستثناء بـ "حالة التدارك" أي الاستدراك، "المغرب متأخر ويجب أن يتدارك التأخير"¹⁶، حسب شهادة عبد الهادي بوطالب، "غير أن حالة الاستثناء طالت أكثر مما ينبغي، فقد استمرت خمس سنوات"¹⁷.

12 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، انبعاث أمة، ج. 10، 1965م، ص. 195 - 202،

13 - عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري والنيابي بالمغرب 1908 - 1992م، ص.

14 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، انبعاث أمة، ج. 10، خطب 1965، ص. 195 - 202، كذلك المرسوم الملكي المنظم لحالة الاستثناء، رقم 130. 65 بتاريخ 6 صفر 1385 / 7 يونيو 1965، الجريدة الرسمية، يونيو 1965م.

15 - عبد الهادي بوطالب، نصف قرن في السياسة، منشورات الزمن، الرباط، 2001م، ص. 173.

16 - المصدر نفسه.

17 - Jacques Robert, "L'Etat d'exception dans la constitution du Maroc", *Trente années de vie constitutionnelle au Maroc*, L.G.D.J., Paris, 1993, p. 239 - 260.

فالفصل 35 من الدستور ينصّ على أنه "إذا كانت حوزة التراب الوطني مهددة أو إذا وقع من الأحداث ما من شأنه أن يمس سير المؤسسات الدستورية فيمكن للملك أن يعلن حالة الاستثناء بمرسوم ملكي بعد استشارة رئيس مجلس النواب وتوجيه خطاب للأمة. وبسبب ذلك فإن له الصلاحية رغم جميع النصوص المخالفة في اتخاذ التدابير التي يفرضها الدفاع عن حوزة التراب ورجوع المؤسسات الدستورية إلى سيرها العادي. تنتهي حالة الاستثناء باتخاذ نفس الإجراءات المتبعة لإعلانها". فالفصل 35 يعطي للملك كل السلطات دون رقابة¹⁸.

ولهذا فإن الضمانة الوحيدة تكمن في المغرب في ضمير صاحب الجلالة نفسه، وهذا نوع من "التقييد الذاتي"¹⁹. و"ثبت أن السلطة القضائية لم تُمس من طرف الملك أثناء قيام حالة الاستثناء"²⁰. أما عبد الرحمن القادري، فيلاحظ أن رجال القانون في المغرب لم يناقشوا الفصل 35، خلال حملة الاستفتاء، على عكس الفقهاء الفرنسيين، "في حين أن هذا الفصل لا يحتوي على أية ضمانة بالنسبة للبرلمان الذي يعدّ من بين المؤسسات الدستورية الهامة في البلاد"²¹.

سيحتفظ كل من دستور 1970م، ودستور 1972م، على الفصل 35، كما هو، غير أن دستور 1992م سيتدارك الأمر، حيث أصبح البرلمان بمقتضاها قائما وجوبا، وإن تمّ اللجوء إلى أعمال الفصل الخامس والثلاثين، بعدما طالبت الكتلة الديمقراطية بتعديله في مذكرتها المؤرخة ب 9 أكتوبر 1991م. حيث ظل الفصل كما هو، أضيف له فقط: "لا يترتب على حالة الاستثناء حلّ البرلمان" (دستور 1996م).

غير أن دستور 2011م، غير موقعه إلى الفصل 59، حيث أضاف استشارة رئيس الحكومة، وأقرّ أنه "لا يحلّ البرلمان أثناء ممارسة السلطات الاستثنائية"، و"تبقى الحريات والحقوق الأساسية المنصوص عليها في هذا الدستور مضمونة". وقرر كذلك أنه "ترفع حالة الاستثناء بمجرد انتهاء الأسباب التي دعت إليها".

18 - محمد المرغني، الوجيز في النظم السياسية والقانون الدستوري المغربي، الجزء الثاني، 118 - 119.

19 - عبد الرحمن القادري، محاضرات في القانون الدستوري والمؤسسات السياسية، مطبوع على الستانسيل، مارس 1979، ص. 189.

20 - عبد الكريم غلاب، التطور الدستوري والنيابي بالمغرب، مصدر سبق ذكره، ص. 239 - 240.

21 - المصدر نفسه، ص. 241.

ثالثا. النتائج المباشرة وغير المباشرة لحالة الاستثناء

دامت حالة الاستثناء من 7 يونيو 1965م إلى إعلان الدستور الثاني يوم 8 يوليو 1970م، أكثر من خمس سنوات، حيث "عاد الحكم فيها إلى جلالة الملك، والحكومة مسئولة أمامه، دون رقابة شعبية وفرضت الرقابة على الصحافة، واتخذت عدة تدابير تطبعها حالة الاستثناء"²². وعارضت الاستفتاء الدستوري الكتلة الوطنية، وباشر البرلمان أشغاله حتى أحداث الصخيرات الانقلابية في عاشر يوليو 1971م، حيث "جمد مجلس النواب وتوقف العمل بالدستور دون أن يعلن عن ذلك رسميا وعادت البلاد إلى الحكم تحت ظل حالة الاستثناء دون أن تعلن رسميا"²³.

دستور 1970، لن يعمّر أكثر من 18 شهرا ونصف الشهر، أما برلمان فلن يشتغل إلا ثلاث دورات عادية (أكتوبر 1970م – أكتوبر 1971م)، إذ طرح جلالة الملك في 17 فبراير 1972م مشروع دستور جديد للاستفتاء سيختلف في بعض فصوله عن سابقه، وسيدوم العمل به إلى غاية تعديله، المرة الأولى في 4 شتنبر 1992م، والمرة الثانية في 13 شتنبر 1996م.

وبالرغم من ذلك، فحالة الاستثناء هاته لم تكن كلها نقمة، حيث تحققت خلالها منجزات اقتصادية واجتماعية وسياسية: تعميم وتعريب التعليم، تكوين الأطر، تعريب القضاء والإدارة، إصلاحات في الميدان الفلاحي: استرجاع أراضي المعمّرين، سياسة بناء السدود... باختصار الاستمرار في بناء دولة عصرية، حديثة العهد بالاستقلال، تحاول الخروج من التخلف الاقتصادي والاجتماعي.

فحالة الاستثناء، ليست كما ينعته البعض بالجمود والاستفراد بالسلطة...، ولكنها بالرغم من ذلك، بالنسبة لنا، وما رافقها من إصلاحات سياسية اقتصادية واجتماعية، من جهة، ومن جهة أخرى محاولتنا الانقلاب على الشرعية، كل ذلك وغيره، أدى إلى إعادة النظر في التجربة الديمقراطية الدستورية بالمغرب، وكانت قضية استرجاع الأقاليم الصحراوية، التي شكلت الإجماع الوطني، صيف 1974م، ثم المسيرة الخضراء في 6 نونبر 1975م، بداية إرهاصات التناوب، الذي أصرّ المغفور له الملك الحسن الثاني على تحقيقه، رغم تعثر المشاورات وطولها، فلن تكون أول حكومة وطنية ائتلافية بمشاركة حزبي الاستقلال والاتحاد الاشتراكي، بعد إقراره بالشرعية والعمل داخل الملكية

22 – Cf. Abdelmoughit Benmassaoud Tredano, « Alternance et recomposition du champ

23 – politique », *Alternance et transition démocratique*, Acte du séminaire organisé par le groupe d'Etudes et de Recherche Démocratie et Droits Humains, Imprimerie Najah eljadida, Casablanca, 2000, p.107 – 113 ; ainsi que Moatassim Mohammed, « L'Alternance dans le discours royal », *Contribution à l'étude des politiques publiques au Maroc. Mélanges dédié à Jalal Essaid*, Faculté de Droit, Rabat Agdal, 1997, 71 – 90.

الدستورية منذ مؤتمره التاريخي في 15 شتنبر 1974م، إلى جانب منظمة العمل الديمقراطي الذي سارت على درب الاتحاد الاشتراكي، في 14 مارس 1998م.

دستور 1972م كرّس التراضي حول الثوابت: الإسلام، الملكية الدستورية والوحدة الترابية، وفي دستور 2011م سيستدرك الاختيار الديمقراطي. وإذا كان دستور 1972م لم يعرف ترجمته على أرض الواقع فقد هَيَّأ لعهد جديد من الإصلاحات السياسية والدستورية عبر الحوار والتراضي، عكسها دستوراً 1992م و1996م.

المبحث الثاني. مخاضات التناوب أو الإصلاح السياسي والدستوري

يهدف الإصلاح السياسي والدستوري، الذي دشّنه المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني، إدماج كل القوى اليسارية في النظام السياسي الدستوري للمملكة، أي التجديد والتغيير ضمن الاستمرارية، كما كان يقول رحمه الله، والذي سيجد له مصطلحاً سياسياً هو «التناوب»، ومدخله الطبيعي إقرار سمو الملكية الديني والدستوري والتاريخي والتعاقدي، بالإضافة إلى إقرار الثوابت التاريخية والتعاقدية²⁴.

أولاً. في البحث عن التوافق: المشاورات الملكية ومذكرات الكتلة الديمقراطية

مشاورات الديوان الملكي وأحزاب الكتلة الديمقراطية، أفرزت مجموعة من الإصلاحات الدستورية، سنتي 1992م ثم سنة 1996م جعلت أحزاب الكتلة الديمقراطية تنتقل من مقاطعة الاستفتاءات الدستورية وفي بعض الحالات الامتناع، إلى موقف المشاركة الإيجابية بالتصويت بنعم على دستور 13 شتنبر 1996م، غير أن "المشاورات التي سبقت استفتاء 4 شتنبر 1992م، والمذكرتين (1991 - 1992م) اللتين قدّمتا للملك، لم تحفّز أحزاب الكتلة الديمقراطية على المشاركة الإيجابية في عملية المراجعة، لأسباب تتعلق بمواقفها حيال المناخ السياسي العام الذي واكب الاستفتاء (عملية تنظيم الانتخابات ونتائجها)"²⁵.

ساد التناقض في موقف المعارضة منذ دستور 1962م، الذي قاطعه حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وبالرغم من ذلك شارك في انتخاباته التشريعية، وقبّله حزب الاستقلال، ومع تنحيته عن الحكومة انتقل إلى المعارضة.

24 - انظر: حسن قرنفل، النخبة السياسية والسلطة، أسئلة التوافق، مقارنة سوسيولوجية للانتخابات التشريعية بالمغرب [1993]م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1997م.

25 - انظر: مراجعة الدستور المغربي 1992م، دراسات وتحليل، سلسلة تشييد دولة حديثة، المطبعة الملكية، الرباط، 1992م؛

غير أنه مع إصلاحات التسعينيات تغير موقفها إلى الانتقال من المقاطعة إلى الامتناع مع دستور 1992، ثم المشاركة، باستثناء منظمة العمل الديمقراطي الشعبي، التي قاطعت استفتاء 13 شتنبر 1996م، مما جعل دستور 1996م يحظى بشبه إجماع بنسبة 99.53 % حسب النتائج الرسمية.

ما بين 1991 - 1996م، صاغت الكتلة الديمقراطية ثلاث مذكرات، حول الإصلاح الدستوري والسياسي، المذكرة الأولى بتاريخ 9 أكتوبر 1991م قدمها حزب الاستقلال وحزب الاتحاد الاشتراكي، والثانية في 19 يونيو 1992م اشتركت فيها أحزاب الاستقلال والاتحاد الاشتراكي ومنظمة العمل الديمقراطي، والتقدم والاشتراكية والاتحاد الوطني للقوات الشعبية، والثالثة في 23 أبريل 1996م، نفس الأحزاب باستثناء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

خلال أكتوبر 1992م، قدم حزب الاستقلال والاتحاد الاشتراكي، مذكرة تهدف إلى إقامة ملكية برلمانية، في مواجهة واقع الملكية ذات الطابع الرئاسي. توسيع صلاحية الحكومة والبرلمان، والتركيز على الدور التحكيمي للملكية والتأكيد على دورها الديني، إمارة المؤمنين لاستعمالها في مواجهة الإسلاميين²⁶.

هكذا لم تعد المعارضة السابقة، تناقش بنية السلطة، بل تعزيز سلطات الحكومة وتوسيع صلاحيات البرلمان، بمعنى آخر الانتقال من «ملكية دستورية ذات طابع رئاسي» إلى «ملكية ذات طابع برلماني». أو بمعنى آخر الانتقال من «ملكية غير متوازنة» حسب عبد الرحمن القادري، إلى «ملكية دستورية برلمانية».

ولابدّ من ملاحظة أن مجمل آليات إجراء الانتخابات تم الاتفاق عليها بالتراضي، خارج قبة البرلمان، إلى حدّ تحوّل البرلمان إلى غرفة تركية، كما حصل لدونة الانتخابات، التي تمت المصادقة عليها في إطار دورة استثنائية لمجلس النواب عقدت بتاريخ 27 مارس 1997م، بعدما تم التراضي حولها خارج المؤسسة التشريعية، إضافة إلى اللجنة الوطنية لتتبع العمليات الانتخابية، التي تمّ تنصيبها في 5 مايو 1997م بمقر المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، والتصريح المشترك الموقع بين السلطات العمومية والأحزاب السياسية يوم 28 فبراير 1997م.

26 - مذكرة الكتلة الديمقراطية، بتاريخ 19 يونيو 1992م، الاتحاد الاشتراكي، عدد 3256، 8 يوليوز 1992م؛ كذلك عبد العزيز لغاري، المذكرات الدستورية، الآفاق الدستورية للنظام السياسي المغربي، منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية، سلسلة مؤلفات وأعمال جامعية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2000م كذلك محمد معتمصم، " المراجعة الدستورية لرابع شتنبر 1992م، المناهل، عدد 41، فبراير 1992، ص. 213 - 230.

فماهي الإصلاحات السياسية الدستورية التي عكست فكرة التناوب، خصوصا دستور 1992م، ثم دستور 1996م؟

ثانيا. الإصلاح السياسي والدستوري: الحوار والتراضي

تم الاحتفاظ بوضعية الملكية، في الدستور المراجع عبر استفتاء يوم 4 شتنبر 1992م، "كملكية حاكمة يسود فيها الملك ويحكم ولا وجود لفصل السلط على مستواها، بل إن كل السلط تنبثق منها وهي لا تقوم بتفويضها بل تفوضها. والملكية ذات مشروعية رباعية دينية وتاريخية وتعاقدية ودستورية، وهي منبع كل السلط المستمدة من البيعة ومن حنكة 12 قرنا من الممارسة السلطانية ومن الدستور. كما أن هذا المفهوم ينيط بالملكية وظيفة تحكيمية ضمن تعددية سياسية يتم التوفيق فيها بين «شروط الفعالية ودولة القانون»، و«السير نحو المعاصرة والديمقراطية مع الحفاظ على الهوية وضمان الاستقرار»²⁷.

ومن ثم يعتبر محمد معتصم أن في دستور 4 شتنبر 1992م، "تم التوفيق بين مفهومي الملكية الرئاسية الحاكمة والملكية البرلمانية بإقامة ملكية شبه - رئاسية"²⁸.

والخطب الملكية تكتسي أهمية بالغة، حيث تسمح بفهم مبادئ دستورية كفصل السلط وطبيعة الرقابة وحدودها والتمثيلية ... فمنذ خطاب دجنبر 1962م، أكد الملك أن المغرب "في حاجة إلى ملكية شعبية، إسلامية، حاكمة. لهذا السبب في المغرب الملك يحكم، والشعب لا يستطيع أن يفهم أن الملك لا يحكم..."²⁹.

ويعتبر خطاب "ثورة الملك والشعب"، 20 غشت 1996م، خطاب الإصلاح الدستوري بامتياز، حيث سيركز جلالته على طبيعة الإصلاحات الدستورية المقترحة: "... سنقدم لك، شعبي العزيز، مشروع تعديلات جديدة أدخلناها على الدستور، والله يعلم أن ما من حرف حرف ولا كلمة كلمة ولا جملة جملة ولا فقرة فقرة ولا بند بند وضعناه إلا وكان من ورائه وأمامه المصلحة العامة

27 - محمد معتصم، النظم السياسية المعاصرة، مصدر سبق ذكره، ص. 179.

28 - المصدر نفسه، ص. 183؛ كذلك النظام السياسي الدستوري المغربي، إيزيس، الدار البيضاء، 1992.

29 - الندوة الصحفية للملك، 31 دجنبر 1962، نشر وزارة الأنباء.

خطاب المغفور له الحسن الثاني، ثورة الملك والشعب، 20 غشت 1996م، انبعاث أمة، ج. 41، المطبعة الملكية، الرباط، 1996م؛ ضمن الدستور المراجع بموجب استفتاء 13 شتنبر 1996م، منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية، الدار البيضاء، 1997م، ص. 31 - 38.

والمساهمة والمثابرة على إصلاح الأمور إصلاحاً تدريجياً نمطياً يتلاءم مع روح العصر ويتلاءم كذلك مع الجغرافية البشرية والفكرية والسياسية لبلدنا العزيز ...³⁰.

تعلق الإصلاح بالثنائية المجلسية، وإحداث الجهة. فالغرفة الثانية "غرفة تقريرية بكل ما في الكلمة من معنى، فهذه الغرفة ستكون الشطر الثاني للبرلمان"³¹.

ويضيف جلالته: "حرصنا في مراجعة الدستور أن نخول لحكومتنا استقلالاً أكثر، في الوقت الذي حرصنا فيه أن توسع اختصاصات البرلمان وتتقوى سلطاته ... إن هذا الدستور مبني على أثار ثلاث: أولاً، إعطاء الحكومة مسؤوليات أكثر، ثانياً، إعطاء منتخبك الوسائل القانونية والموضوعية لمراقبة الحكومة وتشجيعها على السير أو الطلب منها أن تتوقف عن العمل. ثالثاً، وبالرغم من هذا كله فقد بقي خديمك وملكك ساهراً على سير هذا كله لتسيير الدواليب بكيفية متوازنة ومرضية لا تطاحن فيها ولا اعوجاج ولا انحراف. وأن تفويض بعض السلط للحكومة أو البرلمان ليس تفويطاً. فأنا سابقى خادمك والساهر بالليل والنهار على شؤونك"³².

ثالثاً. الانتخابات آلية من آليات التناوب

ظلت الانتخابات موضوع خلاف واعتراض وتشكيك في مصداقيتها لدى أحزاب المعارضة منذ 1960م حتى الانتخابات البرلمانية عند الكتلة الديمقراطية في نونبر ودجنبر 1997م. ورغم جهود الملك، رحمه الله، في خطاب 6 نونبر 1993م، لن تتحقق فكرة التناوب حتى 4 فبراير 1998م، حين عين جلالته الملك عبد الرحمن اليوسفي وزيراً أولاً مكلفاً بتشكيل الحكومة، التي أعلن عنها في 14 مارس 1998م.

وعن مفهوم الانتخابات في عهد التراضي يقول جلالته، بمناسبة إقرار الجهة في 20 غشت 1996م: "إن المغرب تقدم وخطا خطوات، فعلى قانونه الانتخابي أن يتجدد وأن يسير إلى الهدف المنشود ألا وهو مشاركة الجميع لاختيار الأحسن أي مشاركة الكل ككل لاختيار الأحسن، وقانون كهذا لا يمكن أن نراعي فيه الأغلبية أو الأقلية أي الجماعة التي في الحكومة والجماعة التي في المعارضة"، هكذا فالتراضي ينفي الصراع السياسي، أغلبية / أقلية، بل تمثيلية كل مكونات الهيئات السياسية، حسب قوتها، لخدمة المصلحة العامة.

30 - المصدر نفسه.

31 - المصدر نفسه.

32 - المصدر نفسه.

ويؤكد جلالته: "فالفضيحة الوطنية والمصير الوطني، كل هذا يقتضي أن يتخذ هذا القانون عن طريق التراضي وأن تظهر جميع الأحزاب السياسية المكونة للبرلمان وجميع الفرق التي هي في البرلمان (...)، وأن تسود روح الحوار بينهما وروح الإيجابية، وأن تعطينا قانونا جديدا يأخذ بعين الاعتبار الواقع المغربي والعقلية المغربي، ويأخذ بعين الاعتبار أنه ليست هناك أغلبية ولا أقلية، ولكن هناك مجموعة من المنتخبين يجلسون معا ليصلوا إلى تراض يشرفهم ويشرف المغرب".³³، فالتراضي بهذا المعنى هو التسوية هو التعايش المشترك بين مختلف مكونات المشهد السياسي، مع الأخذ بعين الاعتبار روح العصر: العولمة والتنافس الاقتصادي، والخصوصية المحلية: الإسلام، والملكية والوحدة الوطنية والتماسك الاجتماعي.

وتأكيدا لنزاهة الانتخابات: يقول جلالته الملك: "إن التدخل في الانتخابات جعلته حراما على نفسي وحرمة على الحكومة والإدارة..."³⁴. وفي مناسبة أخرى يؤكد جلالته: "وكونوا أخيرا على يقين من أنني سأضع ثقلي الشخصي وهيئتي الشخصية وصلاحياتي الدستورية لتمر جميع الانتخابات المتوالية في هذا البلد على أحسن ما يكون في جو من الاستقامة والشفافية والنزاهة، لأنني مللت أن أسمع أو أن أسمع عن بلدنا أن انتخاباته لم تكن نزيهة أو أن استشاراته كانت مخلوطة أو مشوبة"³⁵.

ويعتبر، في نظرنا، التصريح المشترك بين السلطات العمومية والأحزاب السياسية بامتنياز ميثاقات للتناوب، 28 فبراير 1997م، فبعدما ذكر بأسس التوافق عبر مختلف التوجيهات الملكية (الخطب) التي تؤكد نزاهة الانتخابات، واستجابة لنداء جلالته بجعل التراضي بواسطة الحوار منهجية للمشاركة السياسية، لمختلف الأطياف السياسية، حيث حصل التوافق على: وضع لوائح انتخابية عامة جديدة؛ وضع مدونة للانتخابات؛ إحداث هيئة وطنية لتتبع العمليات الانتخابية، الالتزام بالميثاق الأخلاقي، فيما يخص أخلاقيات الانتخابات: من عدم استعمال المال وحياد الإدارة.³⁶

33 - المصدر نفسه.

34 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، 8 شتنبر 1992، افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة، انبعاث أمة، ج. 37، مصدر سبق ذكره، ص. 443.

35 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، 11 أكتوبر 1996، افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة، انبعاث أمة، ج. 41، ص. 523.

36 - انظر التصريح المشترك بين السلطات العمومية والأحزاب السياسية، 28 فبراير 1997م، ضمن القانون الانتخابي الجديد، منشورات المجلة المغربية للإدارة المحلية والتنمية، سلسلة نصوص ووثائق، الدار البيضاء، 1997م.

رابعاً. شبكة مفاهيم التوافق

تَشكّل في خضم إرهابات التناوب، قاموس سياسي مغربي حديث ما لبثت مصطلحاته يتم إغناؤها يوماً بعد يوم، منها: الإجماع / الإجماع الوطني، السلم الاجتماعي، التشاور، الاستشارة / الاستشارات، الحوار، التراضي، التوافق، التناوب / التناوب التوافقي، المشاركة، الاستحقاقات، المسلسل الديمقراطي، الانتقال الديمقراطي، دولة الحق والقانون ... الإصلاح / الإصلاح الدستوري والسياسي، كل ذلك يعكس خصوصية وحيوية التجربة الديمقراطية المغربية.

معنى التراضي؟ يتساءل جلالة المغفور له الحسن الثاني عن معنى التراضي، في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة في أكتوبر 1996م " ... وما معنى التراضي؟ إن معناه هو الاجتماع حول فلسفة، والاجتماع حول مذهب، والاجتماع حول هدف، وما أكثر ما نحن في حاجة إليه من اجتماع في الرأي والتحليل والاختيار ونحن مقدمون على تأسيس ما نسميه بالجهة.³⁷، وللوصول إلى التراضي لابد من الحوار.

وهو ما بيّنه في مناسبة سابقة: "قلنا دائماً وما زلنا نقول بالحوار للوصول إلى التراضي، ولكن ما هو التراضي في فهمي أنا شخصياً حتى لا نشوه الفكرة؟ التراضي هو الاتفاق على هدف، على هدف سام، على هدف مصيري للبلاد، الاتفاق على اختيار ضروري وتاريخي في وقت ما، هذا هو التراضي في نظري، (...) والتراضي هو أن نتفق على عدم الضلال، أما طريقة الوصول إليه ومناقشة المحطات والمسطرة وتجاذب الحديث حولها وتبادل الآراء فهذا هو الذي يُغني الحوار ..."³⁸.

الحوار والتراضي، آلية من آليات التناوب، الآليات الدستورية والقانونية والانتخابية، فما التناوب، كمصطلح أراد له جلالته، معنى خاصاً ينبعث من التربة المغربية، من الواقع السياسي الدستوري، بل وحتى من اللهجة العربية المغربية؟³⁹.

يحدد جلالته مفهوم التناوب " التناوب الذي أريده لهذا البلد والذي تريدونه حقيقة لهذا البلد هو التناوب بين شقين لا أقول حزبين، بل بين مجموعتين ووسط، حتى إذا ركبنا سيارة التناوب

37 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، 11 أكتوبر 1996م، افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الرابعة، انبعاث أمة، ج. 41، مصدر سبق ذكره، ص. 520.

38 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، ثورة الملك والشعب، 20 غشت 1997م، انبعاث أمة، ج. 42، مصدر سبق ذكره، 1997، ص. 400 - 401.

39 - Cf. Abdellatif Menouni, « L'alternance et la continuité de la politique de l'Etat », Rev. Fr. Sc. Po., Paris, No. 1, vol. 36, fev. 1986.

جاءنا ذلك التناوب بأفكار جديدة وبمنهجية جديدة وبأسلوب جديد وبرجال جدد، وهكذا يكون التناوب أداة ديمقراطية فعالة، فكلما اشتاق البلد إلى أن يستنشق هواء جديدا رفع يده نحو التناوب، فجاء ذلك التناوب بهواء جديد، ومناخ جديد، ووجوه جديدة، وفلسفة جديدة، ومنهجية جديدة"، وذلك شريطة أن تكون، يقول جلالة الملك "بين شقين أي بين جماعتين لديهما وسط، ووسط يجعل الأمور تسير كما جاء في القرآن «ادفع بالتي هي أحسن»⁴⁰ ونجعل الميكانيكية تشتغل دون أي عطب فيما يخص ميكانيك التناوب، إذن هنا أرجع إلى التراضي بمعنى الانشغال بهدف واحد هو: هل نريد هذا التناوب المضبوط وهذا التناوب المجدي، وهل نريد أن نبقي بأحزاب حقيقية عددها لا بأس به أم نريد أن تغطي على ذلك التناوب جماعات وجماعات تكون طفيلية لا تغني من جوع ولا تأتي بجذوى ولا تمثل التناوب، وذلك بخلق عدد كبير من الأحزاب السياسية كما نرى ذلك في بعض الدول التي تشبهنا من ناحية السكان ولها فوق الأربعين حزبا"⁴¹.

ويخلص جلالته إلى أن قواعد التناوب "وكما سبق لنا أن أعلننا ذلك حين تنصيبنا للبرلمان الجديد، فقد قمنا بوحى من ضميرنا وما وصلنا إليه من يقين، ووفق ما يخوله إيانا الدستور باختيار وزير أول مباشر تشكيل الحكومة الجديدة تجسيدا لرغبتنا في تحقيق التناوب السياسي الذي من شأنه أن يكون عنصرا مهما في تجديد صرحك الديمقراطي لأنه ينبع من جوهر نظامك الملكي الدستوري بحكم أن الملك يعلو على كل السلط والفئات والتيارات السياسية، وباعتبار الجالس على العرش أبا للجميع حزبه الأمة برمتها فهو الذي يسهر على أن يكون التباري مفتوحا أمام جميع التيارات السياسية كي تتنافس بفضل التناوب لبلورة الاختيارات الكبرى التي يحددها الممثل الأسمى للأمة"⁴².

كذلك على التناوب أن يأخذ بعين الاعتبار "الاستمرارية في حد أدنى من المعطيات حتى لا نكون من الذين إذا أتوا نسخوا ما فعله السابقون لأخذ الثأر، وبعدهم يأتي الذين كانوا من قبلهم فيعكسون الكرة ويعكسون الخطة ويبقى هذا المجتمع حائرا متحيرا. (...) ولا يمكن أن نصل إلى هذه الفلسفة وأن نعطيها حقيقتها المطبقة على أرض الواقع إلا إذا نحن استعملنا طريق التراضي"⁴³، فالتجديد والتغيير يتم داخل الاستمرارية.

40 - سورة فصلت، الآية: 33.

41 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، خطاب العرش، 3 مارس 1998، انبعاث أمة، ج. 43، مصدر سبق ذكره..

42 - المصدر نفسه

43 - المصدر نفسه.

أما أهداف التناوب وضرورته فيمكن في أن "الحالة الاقتصادية والمالية تضررت من الجفاف من الأزمة الاقتصادية العالمية ... حيث أن المناخ الدولي من الناحية النقدية والناحية الاقتصادية والناحية الاجتماعية غير مرض كذلك فإن مشكلة البطالة ... هي الداء الذي لم يفلت منه شبابنا كجميع شباب العالم ..."⁴⁴، بل أن من أهداف التناوب أنه "سيجعل المغرب يظهر أمام العالم المتطور والعالم في طريق النمو بحجمه وبقيمته وبصورته التاريخية"⁴⁵.

ويحدد جلالته أن فكرة التناوب تولدت يوم رأينا "الأسرة السياسية المغربية انقسمت إلى قسمين، قسم يسمى الكتلة وقسم يسمى الوفاق ... كإنجلترا أو الولايات المتحدة [التي] تعمل بالتناوب أو التداول أو التغيير أو التجديد ..."⁴⁶.

فالتناوب سياسي ليس دستوريا، لم تفرزه صناديق الاقتراع، كما كانت تشترط الكتلة الديمقراطية، بل إرادة الملك. ورغم العرض الملكي المعلن عنه في خطاب 6 نونبر 1993م، لن تتحقق فكرة التناوب حتى 4 فبراير 1998م، لما عين الملك عبد الرحمن اليوسفي وزيرا أولا لتشكيل حكومة، حيث نصبها الملك يوم 14 مارس 1998م. هذه التجربة التي أطلق عليها الاتحاد الاشتراكي: التناوب التوافقي، تميزا للتناوب الذي تفرزه صناديق الاقتراع.

ولنجاح تجربة التناوب التوافقي، يؤكد جلالته "ولا سيما وأن هذه هي ربما أول تجربة ستكون في دولة نامية، وتتمثل في وجود حكومة ليست لها أغلبية، وبعد الله ضمنت لها باتفاق مع الوفاق والأحرار أن تبقى ثلاث سنوات على الأقل، (...) أي إذا أرادوا أن يبقوا ست سنوات فنحن مستعدون لذلك"⁴⁷.

هكذا فمجال التناوب يتحدد في إطار «الملكية الحاكمة» التي تسمو فوق كل السلط: "إن الدستور كما تعلمون يلقي على عاتق ملك البلاد واجبات ومن تلك الواجبات أن يوجه الوزراء الذين يعملون على تطبيقها وضميري المهني يجعلني لا أقف هنا عند هذا الحد بل كلما كانت لي حكومة كنت دائما أمامها ووراءها وعلى شأها وعلى يمينها، فليعلم أولئك الذين سيأتون ليعملوا بجاني أنهم سيجدون مواطنا مسلما مغربيا ملكا أمامهم ووراءهم وعن يمينهم وعن يسارهم ..."⁴⁸.

44 - المصدر نفسه.

45 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، 9 يوليوز 1994م، انبعث أمة، ج. 39، مصدر سبق ذكره،

46 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، 14 أكتوبر 1994م، انبعث أمة، ج. 39، مصدر سبق ذكره.

47 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، ذكرى المسيرة الخضراء، 6 نونبر 1993م، انبعث أمة، ج. 38، 1994، مصدر سبق ذكره..

48 - المصدر نفسه، ص. 441 - 444.

ومعنى ذلك محافظة جلالة الملك على مطلق حقه وسلطته التقديرية في اختيار الوزير الأول، وفق الفصل الرابع والعشرين، دون أن يكون هذا الأخير مستندا، بالضرورة، إلى أغلبية برلمانية ونابعا من اختيارها.

والتناوب يفترض «الثنائية السياسية»، فمع ميلاد الكتلة الديمقراطية في ماي 1992م، والوفاق الوطني سنة بعد، أي في 28 ماي 1993م، يقول جلالته "فحينما رأينا هذا الواقع حمدنا الله سبحانه وتعالى وشكرناه، لأنني أعتقد شخصا أن المغرب إذا أراد أن يبني سياسته المستقبلية على توازن واتزان فلا بد أن يكون لميزانه كفتان"، أي أغلبية ومعارضة، كل منها تضم في تكتل مجموعة أحزاب، أي القطبية السياسية.

ويضيف جلالته "لقد كنت منذ سنين طويلة أتساءل كيف يمكنني أن أسير بك شعبي العزيز إلى هذه الثنائية السياسية التي كنت أراها مستحيلة، أولا لأننا نحن العرب بكيفية عامة فينا سياسيا شيء ما من الفوضى، وثانيا لأن شعوب البحر الأبيض المتوسط، شمالا وجنوبا شرقا وغربا، - والغرب منها بالخصوص - قلما خضعت لهذه الثنائية السياسية، فكنت أعتقد آنذاك أن هذا من الأحلام التي ربما لم أرها، وهاهي الأقدار تشاء - كما قلت لك شعبي العزيز - في الشهور الماضية أن أجد أمامي باستغراب وسرور لا مزيد عليه مجموعتين. الكتلة من جهة، والوفاق من جهة أخرى، وآنذاك قلت لا يمكن أن أضيع هذه الفرصة على شعبي العزيز وعلى أبنائنا الأعزاء وحفدتنا ومن سيخلفنا، لأنني أعتقد أن الديمقراطية المجدية والنافعة هي التي تعمل كالميزان، فالميزان الحقيقي ليس له ثلاث أو أربع كفات، بل له كفتان، هناك من ثقلت موازينه، وهناك من خفت موازينه، وبوجود هاتين الكفتين تمكن بلد كإنجلترا أو الولايات المتحدة من أن يعمل بالتناوب أو التداول أو التغيير أو التجديد كلما رأينا أن الثقل والعبء والمسؤولية أنهكت هذه الكفة تطلّعنا إلى التجديد وفرضه وأخذ الأمانة والأشغال والمسؤولية ووضعها في الكفة الأخرى لتقوم هي بدورها، بعملها وتحمل مسؤوليتها، وتتبارى في الميدان لتريح الكفة الأخرى حتى تستعيد أنفاسها وتسترجع قوتها، فمن هذا المنطلق وبدون أي اعتبار للأرقام - هل هناك أغلبية أو هناك أقلية كما قلت لك شعبي العزيز - اشتد شوقي وتطلعي إلى التجديد وإلى التغيير، قلت هذه فرصة لفتح عصر التداول"⁴⁹.

49 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، 14 أكتوبر 1994م، انبعاث أمة، ج. 43م، مصدر سبق ذكره.

هكذا يخلص جلالته إلى أن "الديمقراطية المغربية يجب أن تكون على كفتين، وهذا هو المستقبل (...) أريد جبهتين لكل واحدة برنامجها، ولكل واحدة رجالها، ولكل واحدة عددها وعُدتها، وأن تتباريا في الميدان وتتسابقا بالخيرات وتتسارعا للخيرات"⁵⁰.

ويُثَمِّن جلالته الملك تجربة التناوب، بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بأمله في أن " الله سبحانه وتعالى أن يعيننا جميعا، لا أقول أن يعينني وحدي في هذه المسيرة، مسيرة الفضيلة البرلمانية، مسيرة الثنائية السياسية، آنذاك حينما أصل لها سوف أعتقد أن مهمتي قد انتهت، ولم يبق لي إلا أن أستمع وأتمتع برؤية ما زرعناه جميعا ليعيش أبنائنا وحفدتنا في ظل ديمقراطية وعدالة اجتماعية. في الأخير (...) سنصل بالحوار وبالصبر وبالأناة إلى خلق هذه الديمقراطية الثنائية التي اعتبرها أنقى وأطهر ديمقراطية." ⁵¹.

عبر الإصلاحات الدستورية، التي لبّت بعض مطالب المعارضة، أي الكتلة الوطنية ثم الكتلة الديمقراطية، اندمجت المعارضة في النسق السياسي الدستوري، الذي يعكسه سمو الملكية التاريخي والديني والدستوري، والتشبث بالمقدسات: الإسلام والملكية والوحدة الترابية، وأضاف دستور 2011م، الاختيار الديمقراطي، كل ذلك عن طريق الحوار، أي المشاورات الملكية، والتراضي، أي الوصول إلى أرضية يقبلها الجميع عن طريق التوافق، لتأسيس تجربة التناوب التوافقي، في أفق القطبية السياسية، لتدشين التداول الديمقراطي الذي سيكرسه دستور 2011م، في دولة الحق والقانون، وكما قال محمد عابد الجابري "لا يمكن فهم قضية التناوب كحدث سياسي ظرفي، بل كحلقة في مسلسل من الاستمرارية"⁵².

50 - خطاب المغفور له الحسن الثاني، ذكرى المسيرة الخضراء، 6 نونبر 1993م، انبعاث أمة، ج. 38، 1994م، مصدر سبق ذكره، ص. 435 - 436.

51 - المصدر نفسه.

52 - محمد عابد الجابري، الاتحاد الاشتراكي، مارس 1998.

إمارة المؤمنين صمام الأمان ضد التطرف الديني في إفريقيا وظائفها ودلالاتها الرمزية

ذة. ماجدة كريمي

رئيسة مركز الدراسات والأبحاث "الصحراء
المغربية التنمية الجهوية والامتداد الأفريقية
كلية سايس فاس

نسجل جميعا على أن ثمة ملامح تاريخية للحضور المغربي بإفريقيا بدأت تكتب حاليا بصيغ متعددة الأبعاد، فقد تناولت الأقسام مختلف أشكال هذا الحضور القوي سواء على الصعيد الدبلوماسي أو الاقتصادي أو العلمي والروحي....

ونسجل جميعا أن المغرب أخذ حاليا في تثبيت بصماته في القارة السمراء وفق تصور جديد يقوم على تفعيل صورة المغرب المعطاء، صورة المغرب المؤطر صورة المغرب النموذج الأفضل للاحتذاء ضدا على ما يحاول البعض - في خطاب تغيطي - التقليل من شأنه.

والحالة هذه كيف نفهم تميز هذه البصمة المغربية انطلاقا من ملامح ذاكرة العلاقات بين المغرب ومختلف دول القارة الإفريقية ؟ وكيف يمكن الاطمئنان إلى استمرار هذا الحضور القوي وما هي الأسس التي تبني عليها علاقاتنا؟

قبل البدء في الإجابات المحتملة لمثل هذه الأسئلة الكبرى لابد من استنطاق تاريخ الهوية المشتركة ردا على مَنْ يسعى إلى تكييف الذاكرة الإفريقية الجماعية بتر روافد التواصل مع المغرب، ولابد من الوقوف على المؤهلات التي يتمتع بها المغرب والتي تمكنه من أن يكون القدوة الصالحة على المستوى الإفريقي.

وهنا تعود بنا الذاكرة القصيرة المدى إلى "الربيع العربي" الذي عصفت باستقرار عدة دول، فأفاض مدادا كثيرا حول الاستثناء المغربي من هذا الربيع وكيف بقي بمنأى عن عواصفه.

فلا مرأى في أن الإصلاحات الاستباقية التي قام بها عاهل البلاد جلالة الملك محمد السادس نصره الله منذ سنة 1999م قد شكلت مصدرا هاما ساهم في تحقيق تجاوز أخطار "الربيع العربي"، إلا أنه لا يجب أن ننسى فضل الاستقرار الذي تنعم به بلادنا والذي يكمن في النظام السياسي البنيوي للمملكة المغربية والدور المحوري لمؤسسة إمارة المؤمنين فيه¹.

فهي تعتبر مظلة يحتكم إليها جميع الفاعلين من سياسيين بمختلف أطيافهم ومكوناتهم ومن نقابيين وفعاليات المجتمع المدني... وغيرهم، كيف لا وهي أعلى سلطة سياسية ودينية في البلاد وهي الدرع الحصين للاستقرار والوحدة في المغرب.

ومن هنا لا غرابة إذا رأينا كيف أن المغرب في مجال إمارة المؤمنين جعل هذه المؤسسة تتمدد داخل النفوذ الديني للعديد من الدول الإفريقية مثل غينيا وكوناكري ومالي... بعد أن طلبت هذه البلدان مساعدة المغرب في أمور تدبير الشأن الديني من خلال تكوين وتدريب أئمة المساجد.

فماذا عن مفهوم هذه المؤسسة وماذا عن وظائفها؟

لنقف بدءا عند مفهوم أمير المؤمنين² في النظام الإسلامي إنه مصطلح شرعي ومعناه القيام على شؤون الرعية وهي أعلى منصب في نظام الحكم في الإسلام.

فالأمة حسب الشريعة الإسلامية لا تستقيم أمورها إلا بوجود أمير المؤمنين يرعى شؤونها ويدير مصالحها وفق أوامر الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وذلك في علاقة تعاقدية تشاركية إذ تعلن الأمة ثقتها بإمامها، ويعلن الإمام التزامه بما تفرضه عليه الإمامة من واجبات دينية ودينية.

بالفعل فإمارة المؤمنين تستمد أحكامها من الأصول الشرعية للإسلام (الكتاب والسنة والإجماع) هذا وحماية الملة وإصلاح أمور الدين بتجديد مؤسساته والعناية بأهله تعد واحدة من أكبر الوظائف المنوطة بها.

1 - يحدد الفصل 19 من الدستور المغربي. لسنة 1962م مهامها على الشكل التالي: "الملك أمير المؤمنين والممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها وضامن دوام الدولة واستمرارها، وهو حامي حمى الدين والساخر على احترام الدستور، وله صيانة حقوق وحريات المواطنين والجماعات الهيئات وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة الملكية في دائرة حقوقها الحقة" وقد تكررت في جميع التعديلات الدستورية (1970-1972-1992-1996م) بنفس الصيغة ليعرف حضورها في دستور 2011م في فصلين هما فصل 41 و42 حيث صار كل من الديني والسياسي مستقل بنظام اشتغال محدد لكن في عمل تكاملي قوي.

2 - تطلق عليه تسميات أخرى مثل: الخليفة/الإمام/ولي الأمر/السلطان.

وللإشارة يعتبر المصطلح الفقهي في قمة المصطلحات من حيث الدقة في التعبير والدلالة على المعاني المرادة، إذ يعبر ذلك المصطلح على علاقة دقيقة بين اللفظ وما يتضمنه من دلالات.

مما سبق اذن يتبين لنا أن الحفاظ على الأمن الروحي هي أكبر الأولويات لدى أمير المؤمنين، وعليه فالمغرب الذي يتبع منذ عهد الدولة الإدريسية إلى يومنا هذا نظاما يرتكز على أسس الشريعة الإسلامية ويستمد قواعده من القرآن والسنة والإجماع³ وعاهل البلاد الملك محمد السادس نصره الله الذي يستجمع في شخصه وفي نسبه كل المؤهلات التي تشترط في أمير المؤمنين لا يمكن لكل هذا إلا أن يجعلنا نستبشر خيرا بهذه الوظيفة النبيلة ألا وهي محاربة كل تطرف ديني يفضي إلى النيل من الأمن والاستقرار، كما لا يمكننا إلا أن نركي الصورة التي باتت تكونها الأسرة الإفريقية حول عاهل البلاد.

إنها صورة تتأسس على قاعدتين أساسيتين أولاهما الشرف والبركة للأسرة العلوية وكذا التاريخ الذهبي للمغرب وثانيهما الفعل الاجتماعي والإنساني في مواقف عاهل البلاد بما يحمله من قيم إنسانية كالعطف وحب الفقراء والمساكين وخدمة الإنسانية والمجتمع.

حقا إن آثار إمارة المؤمنين لا يجادل فيها ولا ينكرها إلا مكابر لا يستسيغ واقع الأمر، وبصمتها ليست مسألة ذات تحليلات سياسية فقط بقدر ما هي قضية شرعية عملا بقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا⁴.

فما نشهده من بيعة رمزية من طرف العديد من الدول الإفريقية لأمر المؤمنين محمد السادس نصره الله خاصة مريدي الطريقة التجانية⁵؛ لأنها تعتبر أنشط الطرق الصوفية في إفريقيا جنوب الصحراء، فهي ترجمة حقيقية لتشبث قوي بهذه المؤسسة⁶ وهنا لا بد من استحضار حكمة وتبصر

3 - إن ما يشكل أساس فخرنا أن مبادئ ديننا الإسلامي الحنيف تركز على مذهب مالك وهو رمز الإسلام الوسطي/ الإسلام المعتدل فالمغرب ليس دولة ثيوقراطية ولكن الدين فيه يقدم دورا أساسيا في إسناد الشرعية واستقرار الدولة.

4 - سورة الفتح، الآية: 10.

5 - ان المشترك الروحي بين المغرب والعديد من دول القارة السمراء من المتانة و الصلابة ما جعله يتجاوز جميع المعوقات ذلك أنه ليس وليد عوامل أنية معاصرة، وإنما أصوله تعود إلى فترات موعلة في القدم حيث لم تنقطع التفاعلات الثقافية - وفي صدارتها التفاعلات الروحية - لبعد المسافات التي تفصل بين الطرفين.

6 - يكفي أن نذكر أن الطريقة التجانية التي كان المغرب سببا في إيصالها إلى عمق إفريقيا لم تكتف بقوة حضورها في السودان الغربي كطريقة صوفية لها الكثير من الأتباع، بل إنها بلغت مرتبة تكوين إمبراطورية تجانية بهذه البقاع فاقترن ذلك اقترانا شديدا بالحاج عمر الفوتي، فهو العالم الفقيه الذي تتلمذ على أساتذة مغاربة متشبعين بأحكام مذهب مالك وتعاليمه. وفي هذا يقول د. أحمد الأزمي: "الحركة الصوفية الإصلاحية بالسودان الغربي بذرة مغربية طيبة عبر كل أطوار نموها وترعرعها إلى أن أثمرت قيادة إسلامية فذة جددت الإسلام وحاربت الوثنية والمسيحية بكل اقتدار"

- "الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي" ج. 3 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2000م، ص 349.

أمير المؤمنين محمد السادس أيده الله في عمله على الوقوف بالمرصاد للتطرف الديني في إفريقيا إذ أن زياراته المتعددة والمتكررة لمختلف الدول الإفريقية وما خلفته من تتبع ميداني وانخراط شخصه في الوقوف على المشاريع التي أطلقها خدمة لتنمية القارة السمراء ترمز بامتياز إلى قيم دلالية تعبيرية. فالتواصل الجسدي الميداني المباشر وما يصحبه من طقوس وبروتوكول يحدث بفاعليته ردود فعل على مستوى الميول النفسي للمواطن الإفريقي، وهو ما يخدم مشروعية الريادة المغربية في هذا المجال ذلك أن الشرعية أو المشروعية هي في حاجة إلى استجابة أو رد فعل مجتمعي إيجابي لاكتسابها لمفعوليتها ولضمان استمرارها.

ولا بأس من التذكير في هذا الصدد بأن العلاقات المغربية الإفريقية إذا كانت قد ركزت منذ الاستقلال وحتى نهاية القرن العشرين على الجانب السياسي الدبلوماسي بالدرجة الأولى حيث قدم المغرب دورا رئيسيا في إيقاظ الوعي الإفريقي لطرد الاستعمار الأوروبي، وساهم بدور فعال في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية والتي ستصبح الاتحاد الإفريقي لاحقا. (و هنا تعود بنا الذاكرة إلى خمسينات وستينات القرن الماضي إذ كانت الوحدة الإفريقية من أهم المواضيع التي شغلت عقول الشعوب والحكام الأفارقة على حد سواء فتبنى الجميع شعار القومية الإفريقية / الشخصية الإفريقية وكلها مصطلحات مرادفة للوحدة الإفريقية . والمغرب في ضوء كل هذه المعطيات كان لا يتأخر في دعم هذا المطمح وفي إيجاد آليات لتنزيله إلى أرض الواقع ولعل خير نموذج عن ذلك احتضانه لمؤتمر الدار البيضاء سنة 1961م وقد خرج بتوصيات شكلت عماد ما سيسطره ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية سنة 1961م)

فبالموازاة مع ذلك نسجل أن المغفور له الحسن الثاني رحمه الله أولى للروابط الدينية مكانة مهمة ذلك أنها شكلت إحدى الحلقات القوية في التواصل المغربي الإفريقي⁷. لتشهد مع بداية القرن 21 قفزة نوعية إذ عملت المملكة المغربية خلال العهد الجديد على اتباع استراتيجية متميزة في مجال ترشيد الحقل الجديد في إفريقيا خاصة بعد تصاعد موجة التطرف الديني الذي بات يلوح بورقة الفعل

7 - لقد تبلورت في القرارات التالية:

- استدعاء العديد من العلماء الأفارقة لحضور الدروس الرمضانية وتفضل بعضهم بإلقاء محاضرات بها.
- تأطير طلبة أفارقة وخاصة في العلوم الدينية والفقهية بمؤسسة دار الحديث الحسنية وكذا بمعهد الدراسات الإفريقية بالرباط.
- إحداث رابطة علماء المغرب والسينغال للصدقة والتعاون الإسلامي بهدف القيام بعمل ثنائي يخدم الدين الوسطي المعتدل وفق المذهب المالكي.
- استقبال مريدي الطريقة التجانية من مختلف الدول الإفريقية بتوفير كل الظروف المواتية لذلك بمدينة فاس.

الإرهابي (لقد حظيت مالي بالتفاته خاصة من طرف جلالة الملك... خاصة حينما تدخل لحل أزمة الشرخ الذي تهددها).

فإذا كان الاستمرار في الاهتمام بالطرق الصوفية وعلى رأسها الطريقة التجانية وذلك عبر ملتقيات لمتنسيبها في مختلف القارة السمراء وتعيين ممثلين للتجانين السنينغاليين في فاس والرباط ومراكش، وكذا مجالسة أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله لمثليهم حينما استقبلوه بالعديد من الدول الإفريقية، قد قَدَّم دورا محوريا وجوهريا في امتصاص نزعة التطرف الديني.

فإن تشييد معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات⁸ ساهم بشكل كبير في إفراز شريحة هامة من أئمة يتبنون قيم الوسيطة والاعتدال.

هذا دون إغفال رمزية إصرار جلالته الملك محمد السادس نصره الله في جولاته الإفريقية على ارتداء الجلباب وحضور صلاة الجمعة، فالأمر ليس مسألة بروتوكولية فحسب بقدر ماهي إشارة قوية إلى إبراز دور إمارة المؤمنين في تكريس أهمية الدين داخل القارة السمراء بل تكريس مكانة المغرب في هذا المجال داخل قارته.

والحق أن هذه المؤسسة قد تمكنت وخاصة في السنوات الأخيرة من رسم معالم السياسية الإفريقية للمغرب ذلك أن الارتباط الروحي بهذه العروة الوثقى التي باتت تربط العديد من الأفارقة قوامها وأساسها هو التشبث بإمارة المؤمنين.

خاتمة:

من خلال التفصيل في موضوع تمثلات إمارة المؤمنين في ذهنية الأفارقة باعتبارها المؤسسة الدينية التي يتحقق في ظلها الأمن والاستقرار بعيدا عن التطرف الديني المفضي للإرهاب، انبرت العديد من الاستنتاجات الدالة نحدددها فيما يلي.

- إن مؤسسة إمارة المؤمنين تجدد نفسها بنفسها وهي تملك من الأدوات ما يدعم ذلك، فقد نجحت في اعتماد استراتيجية محكمة في تعزيز نسق ومنظومة مشروعيتها الأمر الذي أكسبها على

8 - إنها معلمة دينية تأسست سنة 2015م بمدينة الرباط استفاد من تأطيرها العديد من أئمة كل من مالي - غينيا - كوناكري - كوت ديفوار - الغابون...

المستوى الوطني مناعة التنافس المفضية إلى الغلبة، ومنحها القدرة الإقناعية في كسب رضى وقبول المجتمع الإفريقي على المستوى القاري حتى ذهب البعض إلى اعتبارها وصفة النجاة من طوفان التيار السلفي الوهابي.

- من خلال الحركية والدينامكية التي تسير بها مؤسسة إمارة المؤمنين في إفريقيا باتت تكرر بمعطيات واقعية استدلالية على أنها العامل الفعلي في مجالات متعددة وعلى رأسها التصدي للتطرف الديني مما خلق لها وضعاً ريادياً تتزايد قوته بدليل ما يعكسه الواقع المعيشي في القارة السمراء من ردود فعل إيجابية إزاءها.

- صار المغرب مرجعية كل من يسعى إلى السلام والاستقرار بنشر الإسلام المعتدل الذي ينبذ العنف بكل أشكاله . فقد ظل على مر عقود يحافظ على الاعتدال لذا لم يتجذر التشدد في المملكة باستثناء حالات معزولة ولعل هذا ما جنبه الفتنة الطائفية أو المذهبية وجعله يحافظ على انسجامه ووحدة مذهبه.

- المغرب في طليعة الدول التي أعربت منذ سنوات عن قلقها إزاء تهديد الإرهاب في إفريقيا في ظل العلاقات المتنامية بين الجماعات الإرهابية والحركات الانفصالية والشبكات الإجرامية الضالعة في الاتجار بالمخدرات وتهريب الأسلحة والاتجار بالبشر، ولهذا احتضن مؤتمر وزراء العدل بالبلدان الإفريقية الفرانكفونية بهدف التشجيع على الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية لمحاربة هذه الآفة.

- عمل المغرب بصفته رئيساً للجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن على النهوض بجهود المنظمات الأممية في مجال مكافحة الإرهاب بغية بلورة آليات للتنسيق وتعزيز التكامل بين الاستراتيجيات الوطنية والإقليمية والدولية في مكافحة الإرهاب.

دور البعد الديني في العلاقات الإفريقية : المعالم والآفاق

د. عبد الكريم هاني

باحث في العلاقات الدولية - الرباط

يأتي البحث في البعد الديني للعلاقات المغربية الإفريقية كمقدمة للتأصيل الشرعي للبعد الديني في العلاقات المغربية الإفريقية والإسهام بالسيناريوهات المحتملة لدور البعد الديني في الدفع قدما بهذه العلاقات باعتباره القوة الناعمة لتجاوز سلبات التوترات الدولية، فالمملكة المغربية ومنذ الاستقلال حاولت إعطاء قيمة دستورية للبعدين الإسلامي والإفريقي في سياستها الخارجية بالنظر لعمقها التاريخي والجغرافي في القارة الإفريقية، بحيث تمت دسرة هذين البعدين في دياجة كل الدساتير المغربية لسنوات 1962 و 1970 و 1972 و 1992 و 1996 و 2011م، وظهرت استمرارية توظيف البعدين الإسلامي والإفريقي في السياسة الخارجية المغربية بشكل جلي في عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله من خلال تنويع كل تفاصيل مجريات العمق الإسلامي الإفريقي للمغرب وفاء لانتمائه الإفريقي (الزيارات الملكية لإفريقيا)، لدرجة يمكن الحديث عن الواجب المغربي في تقوية العلاقات مع البلدان الإفريقية باعتبارها بعدا استراتيجيا في السياسة الخارجية المغربية.

وإذا كان البعد الإسلامي مجالا محفوظا لأمر المؤمنين باعتباره المسؤول الأول عن الأمن الخارجي للجماعة المسلمة¹ وحامي حمى الملة والدين²، فإن خصوصية هذه المرجعية الدينية والسياسية (إمارة المؤمنين كمؤسسة فوق وطنية) وامتدادها إلى العمق الإفريقي يمثل قطب الرحي

1 - الماوردي أبو الحسن، "الأحكام السلطانية" الطبعة الأولى، دار الكتاب العملية 1993م، ص 18.

2 - نصت الفقرة الأولى من الفصل 41 من دستور فاتح يوليوز 2011م: الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية.

للأدوار الطلائعية للبعد الديني³ انطلاقاً من الثوابت الدينية المذهبية والصوفية المشتركة للعلاقات المغربية الإفريقية (الأشعرية عقيدة⁴ والمالكية مذهباً والتصوف السني في الجانب السلوكي⁵).

ولتوضيح الرؤية أكثر، فإن دراسة مكانة البعد الديني في العلاقات المغربية الإفريقية تقتضي فهماً مغايراً للتاريخ والجغرافيا، بحيث تركز البعد الروحي للمغرب في إفريقيا في تبني الثوابت الدينية المغربية⁶ وإلى يومنا هذا يمكن أن نلاحظ انجذاب الطرق الصوفية بإفريقيا (القادرية والتجانية) نحو المغرب ومدى تعلقها بإمارة المؤمنين التي أضحت مؤسسة فوق وطنية عابرة للحدود المغربية حيث تمتد إلى تخوم الصحراء الإفريقية، كصمام أمان من شأنه قطع الطريق أمام تنامي الفكر المتطرف والتشدد والغلو في الدين الإسلامي بإفريقيا الذي يؤثر سلباً على الأمن والاستقرار ويمس بالمصالح الحيوية للأطراف الدولية التي تهتم بإفريقيا (فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية...) خاصة وأن الاستقطاب الأوربي الأمريكي للمنطقة الإفريقية تتحكم فيه بالدرجة الأولى الاعتبارات الاقتصادية والإستراتيجية.

فهذه النظرة الإستراتيجية وهذه الأهمية المتزايدة للبعد الديني، والروابط الدينية والتاريخية العريقة أعطت للدبلوماسية المغربية في إفريقيا نقلة نوعية في إعادة توجيه السياسة الخارجية المغربية تعميقاً لهذه الارتباطات الروحية.

ثم إن تكريس الواجب المغربي تجاه إفريقيا من خلال اعتماد البعدين الإسلامي والإفريقي كشوابت مدمجة لسياسته الخارجية، يمثل تنويعاً لمسؤولياته التاريخية بإفريقيا، وللمضي قدماً في

3 - جاء في خطاب جلالة الملك بمناسبة الذكرى الثالثة عشرة لعيد العرش (طنجة 2011/07/30 م) "أما علاقتنا مع عمقنا الإفريقي، الذي يشكل مجالاً لفرص واعدة، فإننا حريصون على نهج مقارنة متجددة قائمة على التضامن ومبنية على تعزيز الأمن والاستقرار".

وفي خطاب عيد العرش (2004/07/30 م) "وبنفس الحزم والعزم، فإننا لن نفتأ نجعل قارتنا الإفريقية في صدارة سياستنا الخارجية، مكرسين جهودنا لتعزيز علاقاتنا مع كافة بلدانها الشقيقة".

4 - العقيدة الأشعرية هي مجموعة من المعتقدات الدينية التي جاء بها الدين الإسلامي ونص عليها القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية الشريفة، من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر وغير ذلك من الأمور الغيبية، وتتنبأ العقيدة الأشعرية للإمام أبي الحسن الأشعري، وقد اختار المغاربة الأخذ بهذه العقيدة نظراً لارتكازها على القرآن والسنة ومذهب السلف الصالح واتسامها بالتوسط والاعتدال والسهولة والوضوح.

5 - وديع أكونين "التصوف السني المغربي وامتداده الإفريقي من خلال كتاب: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكاثر"، مجلة دعوة الحق، السنة التاسعة والخمسون، فبراير 2016 م، ص: 57.

6 - أبو بكر القادري "الدعوة الإسلامية في إفريقيا ونظرة على أحوال المسلمين ببعض أقطارها الغربية، دعوة الحق، إفريقيا القارة الإسلامية: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، العدد 269، أبريل - ماي 1988 م، ص. ص 160-193.

المساهمة في تأمين وتثمين الأمن الروحي للشعوب الإفريقية قصد إعطاء قوة الدفع الأساسية للعلاقات المغربية الإفريقية في أفق تحقيق النهضة الإفريقية المنتظرة، وهنا تبرز أهمية استثمار الروابط الدينية والزخم الروحي والوجداني لمؤسسة إمارة المؤمنين في رسم معالم العلاقات المغربية الإفريقية وإعادة تأسيس التوازنات الجيواستراتيجية في منطقة الساحل وإفريقيا الغربية عن طريق الحفاظ على الهوية الثقافية والعقائدية للشعوب الإفريقية، وبالتالي المساهمة في استتباب الأمن والاستقرار في القارة الإفريقية.

فما هي المزايا الجيواستراتيجية والسيناريوهات المحتملة لتفعيل البعد الديني في العلاقات المغربية الإفريقية ؟

للإجابة على هذه الإشكالية، نتناول في الفصل الأول معالم ومرتكزات العمق الروحي للمغرب بإفريقيا، على أن نخصص الفصل الثاني لاستشراف آفاق الزعامة الروحية المغربية بإفريقيا.

الفصل الأول: معالم ومرتكزات العمق الروحي للمغرب بإفريقيا

المغرب مطالب بتكييف سياسته الخارجية مع استراتيجيات القوى الكبرى في إفريقيا جنوب الصحراء، من خلال الاستثمار الأمثل للبعد الروحي للعلاقات المغربية الإفريقية للتصدي ومواجهة نفوذ هذه القوى داخل عمقه الاستراتيجي الإفريقي (الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا القوة الاستثمارية السابقة في إفريقيا، الصين، اليابان)، ولعل الرهانات المغربية على البعد الديني كأحد محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه إفريقيا، تبقى واعدة في تأكيد البعد الاستراتيجي للمغرب في إفريقيا عبر شبكة قنوات الدبلوماسية غير الرسمية يأتي على رأسها دور إمارة المؤمنين المؤسسة الفوق وطنية والزوايا الصوفية بإفريقيا.

ولرصد معالم العمق الروحي للمغرب في إفريقيا يمكن تحليل مكانة الثوابت الدينية باعتبارها الأسس والمقومات الوطنية الراسخة، التي قامت عليها هوية المغرب واستقر عليها وجوده الإسلامي وبنائه الحضاري والذي أدى إلى تعميق البعد الروحي للعلاقات المغربية الإفريقية من خلال:

- إمارة المؤمنين كمرجعية دينية فوق وطنية (المبحث الأول)
- المذهب المالكي كمذهب وسطي معتدل (المبحث الثاني)
- التواصل الصوفي المغربي الإفريقي (المبحث الثالث)

المبحث الأول: إمارة المؤمنين كمرجعية دينية فوق وطنية

تعتبر إمارة المؤمنين من المصطلحات الشرعية التي تطلق على وظيفة القيام بشؤون الرعية بما يصلحهم دنيا وآخرة، وتعني الرئاسة العظمى والولاية العامة القائمة على حراسة الدين وسياسة الدنيا وأصل مشروعية إمارة المؤمنين مستمد من إجماع علماء الإسلام من عصر الصحابة والتابعين وأهل السنة، فمنصب الإمامة ليس منصبا رمزيا وإنما هو حضور حقيقي فاعل ومؤثر، والوفاء بعقد البيعة⁷ لأمير المؤمنين يستلزم:

• السمع والطاعة لأمير المؤمنين؛

• لزوم الجماعة فلا يجوز منازعة السلطان في الحكم؛

• النصرة التي تتم بالتأييد والدعاء والنصيحة⁸.

كما أن الأبعاد العقدية لإمارة المؤمنين تعود إلى النيابة عن الشارع في حفظ الدين وسياسة الدنيا باعتبارها امتدادا للخلافة، فهي جزء لا يتجزأ من الإسلام، وممارسة الحكم في ظلها ممارسة تعبدية. وعلى هذا الأساس، فالطابع الفوق وطني لمؤسسة إمارة المؤمنين في إفريقيا يكمن في ما يمكن تسميته بالواجب الإفريقي للمغرب لأن إمارة المؤمنين تجمع لزوما بين الحق والواجب تبادلا وتقابلا فحق أمير المؤمنين هو الطاعة وحق الرعية هو حفظ حقوقها ودرء كل المفسد وجلب كل المصالح⁹ وبذلك تمسك إمارة المؤمنين بزمام العلاقات المغربية الإفريقية في أغلب المجالات بما تملكه من إمكانيات ووسائل تدخلية من شأنها إعادة التوازن لهذه العلاقات، على اعتبار أن أمير المؤمنين هو حامي الصوفية بإفريقيا، مما يسمح لها باستثمار هذه الروابط الروحية والوجدانية في رسم الملامح الإفريقية للسياسة الخارجية المغربية، وإعادة تأسيس التوازنات الجيوستراتيجية التي تخدم المصلحة الوطنية.

وبما أن السياسة الخارجية تدخل ضمن المجال المحفوظ للمؤسسة الملكية على اعتبار أن الملك يعد الفاعل الأساسي للسياسة الخارجية المغربية نظرا لكونه رمز وحدة الأمة المغربية وضامن استمرارها واستقلالها ووحدتها الترابية، فقد استطاع المغرب تأسيس شبكة من الروابط الروحية مع

7 - العربي المودن "إمارة المؤمنين الأسس والغايات/ الحقوق والواجبات" الملتقى الثقافي العلمي السادس للمجلس العلمي المحلي للرباط 26 أكتوبر - 07 نونبر 2013م (إمارة المؤمنين والبيعة الشرعية) ص 63-75.

8 - مولاي هشام العلوي "إمارة المؤمنين بالمغرب تأصيل الثبات والتجديد والاستمرارية" الملتقى الثقافي السادس للمجلس العلمي المحلي للرباط (26 أكتوبر - 07 نونبر 2013م)، إمارة المؤمنين والبيعة الشرعية، ص 104.

9 - صالح النشاط "إمارة المؤمنين والتنمية البشرية" الملتقى الثقافي العلمي السابع للمجلس العلمي المحلي للرباط خلال الفترة من 24 أكتوبر إلى فاتح نونبر 2014 منشورات المجلس العلمي المحلي للرباط 2014م، ص 208.

الشعوب الإفريقية نظرا للامتداد الروحي لإمارة المؤمنين ببلدان هذه الشعوب، ويكفي الإشارة إلى أنه مع بداية الاستقلال اعتمد المغرب وزارة خاصة بالشؤون الإفريقية بهدف توسيع شبكة العلاقات مع الدول الإفريقية وكان آنذاك الدكتور عبد الكريم الخطيب من يتولى أمورها، وخلال سنة 2017م تم إحداث وزارة منتدبة بوزارة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي مكلفة بالشؤون الإفريقية بعد نحو عشرة أشهر من عودة المغرب إلى منظمة الاتحاد الإفريقي.

المبحث الثاني: المذهب المالكي كمذهب وسطي معتدل

يتميز المذهب المالكي بـ:

- السعة والمرونة: وذلك باعتماد منهج تنزيل مسائل الفروع على واقعها في الحياة.
- التوسعة والاعتدال: وذلك بأخذه بالوسط في الأحكام الفرعية المستنبطة دون إفراط أو تفريط، مع الاحتياط في مسائل العبادات والدماء ونحوها، والتخفيف فيما يكون من قبيل المعاملات والعادات.
- الواقعية: وتعني الإفتاء فيما هو واقع من النوازل والقضايا والإجابة عما هو حاصل من الوقائع في الحياة.
- المزاجية بين الفقه والعمل: وذلك بالتعليم وتفقيه الناس في أحكام الشريعة ومكارمها، وتبيين حلالها من حرامها، وتطبيق ذلك في العمل والسلوك.
- التوحيد: أي توحيد الآخذين بمذهبه، المنتمين إليه اعتمادا على قوة منهجه وبعد نظره، ووفرة مادته وثروته الفقهية، ورجاحة أدلته النقلية والعقلية.
- المزاجية بين الرأي والأثر: حيث إنه يجمع بين اعتماد المنقول من صحيح الأحاديث والآثار من أقوال الصحابة والتابعين، وغيرهم من علماء السلف، والأخذ باجتهادات الفقهاء.
- كثرة المدارس وتنوعها وتكاملها: انطلاقا من المدرسة الأولى وهي المدرسة الحجازية بالمدينة المنورة، وما تفرع عنها من المدارس العراقية والمصرية والقيروانية والمغربية والأندلسية.
- سعة أصوله وعمقها: وإحكام صياغتها وكثرة تناقلها بين العلماء تدريسا وإفتاء وتأليفا¹⁰.

10 - برنامج تأهيل أئمة المساجد في إطار خطة ميثاق العلماء، اللقاء السادس، السبت 17 مارس 2012م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 3.

- كثرة مصنفات فقهه: ووفرة الشروح والمختصرات في فروع الفقه وأصوله، وکلياته وجزئياته، تبعا لتعدد مدارسه وتنوع مناهجها.
- وهذه المميزات جعلت المذهب المالكي مؤهلا دائما لاستيعاب التطورات ومواكبة المستجدات، فالمدرسة المغربية للمذهب المالكي هي امتداد للمدرسة التونسية القيروانية.
- فالمذهب المالكي يمثل جزءا لا يتجزأ من كيان المغاربة وشخصيتهم وهويتهم الدينية ورمزا للوحدة الفكرية والعقائدية والسياسية، فالمغرب سني أشعري مالكي جنيدي منذ قرون، وهذا الاختيار الديني عن طريقه حسمت الصراعات التي مازالت دول كثيرة في العالم الإسلامي تعاني منها بين شيعة وسنة وصوفية وسلفية وغيرها من النزاعات الطائفية¹¹ وبإنشاء جامع القرويين ظهرت البوادر الأولى لثقافة المذهب المالكي بالمغرب مع التمسك به عقيدة وفقها وسلوكا¹².
- والعمق الجغرافي للمذهب المالكي بإفريقيا يشكل بثقة المعرفة والعلوم الدينية، وصرحا يكرس انتماء البلدان الإفريقية التي تنهل منه للمرجعية الدينية المشتركة القائمة على الإسلام السني والمذهب المالكي المتسم بالاعتدال والوسطية بعيدا عن كل تشدد أو غلو وقابليته للتطور والتجديد ومواكبة العصر في ظل الشريعة الإسلامية وتحت مراقبتها وداخل إطارها الفقهي.
- ويأتي تمسك المغرب بالمذهب المالكي لتمييزه بالوسطية والاعتدال والاجتهاد الفكري وبذلك شكل المغرب الحصن الحصين لهذا المذهب فكرا وعملا وامتد بذلك صداه إلى تخوم الصحراء الإفريقية لخصوصياته التي يمكن إجمالها في:
- الضمانات التشريعية لتثبيت حقوق الراعي والرعية.
- القوة التشريعية للمدرسة المالكية أو كما يصطلح عليه بشخصية القانون، على اعتبار أن المذهب المالكي لم يقتصر على حدود قطرية أو ألوان عرقية.
- قدرة الفقه المالكي على حراسة الأحكام الدستورية ودعم المؤسسة القضائية¹³.
- فوحدة المذهب الفقهي تحقق إجماع كلمة المسلمين وتجنبهم الفرقة والتوتر والفتن وكثرة التبديع وتساهم في حفظ الطمأنينة والاستقرار في نفوس العباد.

11 - عبد الرزاق وورقية "النموذج الإصلاحی المغربي تفرده وثوابته ومسالكه" مجلة دعوة الحق، السنة 54 العدد 401 يوليوز 2011م، ص 88

12 - محيى عبد المجيد "المدرسة المالكية بالمغرب الأقصى أعلامها ومصادرها وخصائصها... الإمام مالك بن أنس وتراثه الفقهي تنظيم وزارة الإرشاد والأوقاف بالسودان بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية 22-23 فبراير 2009م، ص 124.

13 - عبد الحميد العلمي "خصوصية الفكر الديني بالمغرب" مجلة دعوة الحق السنة 54 العدد 401 يوليوز 2011م، ص 30-31

ومادام الفقه المالكي يركز في مسأله وأحكامه على الوسطية والاعتدال فإن الاستثمار الأمثل لهذا الرصيد المذهبي يستلزم ضرورة تجديد التوعية بالمذهب وبقواعده والتعريف بأعلامه ومواقفهم ضد المظاهر الدخيلة على المجتمع الإسلامي من أجل الحفاظ على وحدة المسلمين والفكر التنويري الذي يتبناه المذهب المالكي الصالح لكل زمان ومكان نظرا لرحابته وانفتاحه على غيره من المذاهب الفقهية و قابليته للتطور والتجديد ومواكبة العصر واتسامه بالمرونة في معالجة كثير من القضايا الشائكة والحالات المستعصية بفضل مبدأ مراعاة الخلاف الذي اتخذه أصلا من أصوله الفقهية التي بنى عليها فقهه، والسماحة والتيسير في أحكامه وآرائه وكذا الوسطية والاعتدال في أحكامه ومواقفه وفي أصوله وفروعه لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تشديد ولا غرابة ولا شذوذ ولا جمود ولا تعقيد ولا تمرد ولا تكفير، بالإضافة إلى البعد المقاصدي، حيث يعتبر الفقه المالكي من أكثر المذاهب الفقهية فهما لروح الشريعة الإسلامية ومقاصدها.

المبحث الثالث: التواصل الصوفي المغربي الإفريقي:

الطرق الصوفية مدارس دينية علمية تربوية سلوكية، ظهرت كتنظيمات سلوك جماعي في العصور المتأخرة، ومعظم الطرق الصوفية تعود إلى ثلاثة أصول (الطريقة التجانية: نسبة إلى أبي العباس التجاني دفين فاس، والطريقة القادرية: نسبة إلى عبد القادر الجيلاني دفين بغداد، والطريقة الشاذلية: نسبة إلى أبي الحسين الشاذلي نزيل مصر ودفينها)، وارتباط هذه الطرق الصوفية بالمغرب ساهم بقوة في تعزيز العمق المغربي بإفريقيا المتمثل في المشترك المذهبي والعقائدي والمشكل للثوابت الدينية المشتركة.

من الناحية التاريخية فقد وصل الامتداد الترابي للمغرب في إفريقيا إلى نهر السنغال (العهد المرابطي) وهكذا امتد النفوذ المغربي إلى إقليم "شنقيط" وإلى ضفاف نهر النيجر والسنغال وخاصة في عهد السلطان المنصور السعدي، حيث كانت "تمبكتو" عاصمة إقليم السودان الغربي الخاضع للدولة المغربية،¹⁴ وبذلك تغلغت الطرق الصوفية ذات المنشأ المغربي في إفريقيا وساهمت في تأسيس نوع من التواصل الصوفي المغربي الإفريقي في إطار شبكة من العلاقات التاريخية التي تربط بين المغرب والأقطار الإفريقية وخاصة غرب ووسط إفريقيا¹⁵، ويمثل أحد أوجه الدبلوماسية الموازية

14- أحمد الأزمي "بيعات من الصحراء نعتز بها ملوك الدولة العلوية، ندوة البيعة والخلافة في الإسلام منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ص.ص: 533-560.

15 - John O.HUNWICK « Les rapports intellectuels entre le Maroc et l'Afrique sub-saharienne à travers les âges » chaire du Patrimoine Maroc - Africain Série Conférences (2) Publications de L'institut des Études Africaines 2014, p16

أو الهادئة أو غير الرسمية من خلال مساهمتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في التأثير على صناع القرار السياسي الإفريقي بما يحقق أهداف السياسات الخارجية.

ولقد شكلت مدينة فاس مركزا للإشعاع الفكري والديني والروحي للمغرب في دول إفريقيا جنوب الصحراء، بحيث تعد عاصمة التيجانيين الأفارقة الذين يتوافدون عليها لزيارة ضريح مؤسس الطريقة التيجانية "سيدي أحمد التيجاني" ولطلب العلم حيث وجدوا في جامع القرويين مصدرا لتلقي المعارف الدينية والعلمية، وتعتبر مدينة "تيفاون" من أهم مراكز الطريقة التيجانية في دول غرب إفريقيا، وبذلك أضحت الطرق الصوفية والزوايا مراكز علمية ودينية تستند على خطاب ديني يقوم على الإيمان بالرسالة المحمدية والتسامح والاعتدال¹⁶.

واستثمارا وتثمينا لهذا البعد الصوفي، تبنى المغرب إستراتيجية طموحة قائمة على تفعيل دور التصوف في إشاعة الأمن الروحي، ونشر قيم المحبة والوئام، والحرص على ربط الاتصال بالطرق الصوفية بإفريقيا من خلال تنظيم اللقاءات وتوجيه الرسائل الملكية إلى ملتقياتها واحتضان شيوخها وزعمائها، وبذلك أضحت دبلوماسية الطرق الصوفية تكمل أنشطة الدبلوماسية الرسمية من أجل تحقيق أولويات السياسة الخارجية المغربية.

وفي الرسالة السامية لأمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله الموجهة إلى المشاركين في الدورة الوطنية الأولى للقاء سيدي شيكر (19 شتنبر 2008م)، نبه صاحب الجلالة على ضرورة التزام جميع الزوايا الصوفية بمنهاج الصفاء، الذي أسست عليه، وتنزيهها عن الأعراض، والسمو بأهلها عن كل ما لا يليق بهم، من ابتغاء العاجل وترك الآجل. كما تضمنت الرسالة الملكية السامية إشارة قوية على قوة التصوف على الاستمرارية والتجديد في آن واحد، الاستمرارية في صيانة التوابث، في العقيدة والمذهب والولاء لإمارة المؤمنين والتجديد في المبادرات والسلوكات التي جعلت من أبناء الزوايا وأتباعها، أبناء وقتهم ونماذج في القدوة وفي المسارعة إلى النفع¹⁷.

فأمير المؤمنين هو حامي التصوف السني انطلاقا من الوعي بقيمة التربية الدينية الصوفية في بعدها الوسطي المعتدل¹⁸.

16 - عادل موساوي "علاقة المغرب مع إفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية" أطروحة دكتوراه في القانون العام جامعة محمد الخامس اكدال الرباط الموسم الجامعي 2002-2003م، ص 87.

17 - الرسالة الملكية السامية التي حررت بالقصر الملكي بالدار البيضاء في 17 شتنبر 2008م.

18 - عبد الوهاب الفيلاي "عناية أمير المؤمنين بالتصوف السني: رسالة إلى لقاء سيدي شيكر نموذج" دعوة الحق، العدد 408 السنة 57، يوليوز 2014م، ص 69.

الفصل الثاني: أمير المؤمنين كزعيم روحي لإفريقيا.

أثناء الاحتفال الرسمي بمناسبة بداية رئاسة السيد ابراهيم بوبكار كيتا لجمهورية مالي، ألقى صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله خطابا بتاريخ 19 شتنبر 2013م قال فيه: "إن الإسلام في المغرب وفي مالي واحد، ممارسة وتقليدا، إنه إسلام متشبع بنفس القيم المبنية على الوسطية والاعتدال، وب نفس تعاليم التسامح والانفتاح على الآخر. كما أنه يظل عماد الوشائج الروحية التي تجمع على الدوام بلدينا".

وعموما، يمكن القول إن الإسلام في المغرب وفي إفريقيا واحد، ممارسة وتقليدا، وقد اعتبر "معهد أبحاث السياسة الخارجية" الأمريكي المتخصص في الدراسات حول القضايا الاستراتيجية الدولية، أن الزيارة الملكية لمالي كانت لحظة التحام روحي فريد من نوعه نابع من المكانة الروحية لجلالة الملك محمد السادس أمير المؤمنين المدافع عن إسلام الوسطية والاعتدال، كما ترتبط هذه الرمزية بالعمق التاريخي للمغرب في إفريقيا من خلال إسهامه في نشر الدين الإسلامي والطرق الصوفية في الأقطار الإفريقية.

وفي الرسالة الملكية - التي وجهها جلالة الملك محمد السادس نصره الله - بتاريخ 6 دجنبر 2013م - للقممة الفرنسية المغربية حول السلم والأمن، أشار جلالة الملك إلى "إن الحفاظ على السلم والاستقرار في المنطقة (الإفريقية) رهين بصياغة الهوية الثقافية والحوزة الدينية التي مكنت شعوبها من العيش بتناغم على مدى قرون عديدة. لقد أخذ المغرب على عاتقه حماية الإسلام السني الذي يدعو إلى الاعتدال والتسامح والانفتاح، والذي اعتنقته شعوب المنطقة عبر تاريخها، معتمدا في ذلك على الوشائج الروحية العريقة التي تربطه ببلدان منطقة الساحل وعلى مؤسسة إمارة المؤمنين، علاوة على تجربته الناجحة في مجال إصلاح الحقل الديني،... في إطار الالتزام التام بتعاليم الوسطية وبالمذهب المالكي الذي نشترك في إتباعه".

وعلى هذا الأساس، سوف نتناول في المبحث الأول الريادة الروحية والواجب المغربي تجاه إفريقيا، ثم سنتطرق في المبحث الثاني لمركزية الدبلوماسية الروحية الإفريقية المنشودة وفي مبحث ثالث سنحاول البحث في ديناميكية البعد الديني.

المبحث الأول: الريادة الروحية والواجب المغربي تجاه إفريقيا

إن البعد الديني كمحدد أساسي يتحكم في سيرورة العلاقات المغربية الإفريقية، من شأنه توجيه السياسة الخارجية المغربية نحو تأكيد الواجب المغربي تجاه إفريقيا، وبالتالي كسب الرهانات الاستراتيجية للدبلوماسية الروحية في أفق تحقيق المعجزة الإفريقية المنشودة، وعموماً يمكن إبراز محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه إفريقيا في:

• المحدد الثقافي والديني: بهدف الحرص على ضمان استمرارية الروابط التاريخية والثقافية مع إفريقيا جنوب الصحراء.

• محدد المصلحة السياسية المرتبطة أساساً بملف قضية الصحراء المغربية.

• المحدد الجيوسياسي الدولي المرتبط بالمكانة الجيوسياسية الجيوستراتيجية لإفريقيا على الصعيد الدولي (احتدام التنافس حول إفريقيا).

وتأسيساً على ما سبق وللدفع قدماً بالعلاقات المغربية الإفريقية، يلزم توظيف وإعمال دبلوماسية روحية وفق تصور واستراتيجية متكاملة تهدف بالأساس إلى استغلال العمق الروحي للمغرب في إفريقيا، وتكييف السياسة والتحديات الخارجية المغربية تجاه إفريقيا مع الرهانات المرتبطة بالبعد الديني خاصة مع تنامي ظاهرة الإرهاب والتطرف العنيف بإفريقيا إلى جانب تنشيط الدبلوماسية غير الرسمية أو الدبلوماسية الموازية مع جهات غير حكومية (الزوايا الصوفية) بغرض تعزيز وتطوير العلاقات القائمة، على اعتبار أن شبكة العلاقات الروحية التي نسجتها إمارة المؤمنين كمؤسسة فوق وطنية مع الطرق الصوفية بالدول الإفريقية، لعبت دوراً محورياً في دعم العلاقات المغربية الإفريقية، ففي أعقاب الأزمة المالية وما ترتب عنها من تدخل عسكري فرنسي ودعم دبلوماسي دولي، شكلت الزيارات المتعاقبة التي قام بها جلالة الملك محمد السادس إلى مجموعة من الدول الإفريقية تأكيداً على الواجب المغربي تجاه إفريقيا أو بالأحرى العمق الروحي والاستراتيجي المغربي تجاه إفريقيا نظراً للدور الذي يمكن للمغرب الإسهام به لمساعدة الدول الإفريقية على مكافحة ظاهرة الإرهاب والتطرف الضيق بدعم أوروبي وأمريكي بشكل يسمح للمغرب أن يكون قائداً استراتيجياً جديداً للقارة الإفريقية الخالية من برائن الإرهاب والتطرف الذي قد يمتد لا محالة في حالة استفحاله إلى باقي بلدان العالم خاصة القارة الأوروبية.

فأمام حدة التنافس بين القوى الكبرى على التمرکز في القارة الإفريقية، فإن الحضور الوازن لمؤسسة إمارة المؤمنين في الوجدان الإفريقي من شأنه الإسهام في تبوأ المغرب دور القائد

الاستراتيجي على مستوى القارة الإفريقية- باعتبارها الفضاء الطبيعي والامتداد الاستراتيجي للمغرب- وأن يكون ضمن الفاعلين الأساسيين داخل القارة الإفريقية التي ينتمي إليها وتنتمي إليه، وتتويج التعاون جنوب- جنوب وبالتالي القيادة المنشودة من أجل انبثاق إفريقيا معتزة بهويتها، وقوية بتراثها الثقافي والروحي، وبذلك يشكل البعد الديني في العلاقات المغربية الإفريقية رافدا يبرر الواجب المغربي تجاه إفريقيا وهذا الدور القيادي الطلائعي لإمارة المؤمنين من شأنه مزاحمة الاستراتيجيات الغربية وخاصة المشروع الأوروبي الذي يعتبر إفريقيا العمق الاستراتيجي الأمني لأوروبا والمشروع الأمريكي بالقارة الإفريقية، وهذا الدور سيعطي لاحالة قوة الدفع الأساسية للعلاقات المغربية الإفريقية نحو مزيد من الاستقرار والرفاه الاقتصادي المشترك، فالمشروع المغربي في إفريقيا يأتي في سياق استراتيجية طموحة تركز الواجب المغربي تجاه إفريقيا للحيلولة دون تنامي الأخطار الإرهابية التي أضحت تشكل تهديدا حقيقيا لاستقرار وأمن القارة الإفريقية، من خلال تقديم النموذج المغربي لإصلاح الحقل الديني كاستراتيجية استباقية وقائية ومرنة تأخذ بعين الاعتبار المرتكزات الدينية التي من شأنها تخفيف المنابع المذهبية والفكرية للظاهرة الإرهابية والتطرف الديني وبالتالي قطع الطريق أمام انتشار واستفحال الفكر الديني المتطرف الذي قد يعصف باستقرار القارة الإفريقية.

المبحث الثاني: المقاربة الشاملة والمندجة للعلاقات المغربية الإفريقية.

في الرسالة الملكية- التي وجهها الملك محمد السادس نصره الله إلى منتدى كرانس مونتانا¹⁹ الذي استضافته منظمة "الإيسيسكو" بمقرها بالرباط في 20 يونيو 2014، حول موضوع "العلاقات جنوب- جنوب: من خيار استراتيجي إلى ضرورة ملحة" أشار جلالة الملك محمد السادس نصره الله إلى أن "المملكة المغربية تعمل جاهدة، من منطلق الإيمان بقدرة القارة الإفريقية على تحقيق المعجزة الإفريقية المنشودة، من أجل انبثاق إفريقيا معتزة بهويتها، وقوية بتراثها الثقافي والروحي، متحررة من سلبات الماضي، ومن كل مركبات النقص. إفريقيا عصرية وطموحة، تأخذ بزمام المبادرة و أن "تحقيق هذه المعجزة ليس مجرد حلم أو أمل نتطلع إليه، بل إن شعوبنا قادرة على جعله

19 - كما تم عقد فعاليات منتدى كرانس مونتانا من 12 إلى 14 مارس 2015 بمدينة الداخلة تحت شعار "إفريقيا والتعاون الإقليمي والتعاون جنوب- جنوب"، الذي شهدت دورته الحالية نجاحا باهرا تميز برسالة قوية من جلالة الملك محمد السادس وبمشاركة 800 شخصية تمثل 112 دولة تناولوا عددا من القضايا الاقتصادية والتنموية في القارة الإفريقية تتمحور حول "التنمية الاقتصادية في إفريقيا وتعزيز التعاون جنوب- جنوب"، و "سياسة المغرب في مجال التعاون الإفريقي" و "التدبير الجيد للموارد الطبيعية في إفريقيا" و "تحديات الثورة الرقمية في العالم وفي إفريقيا".

واقعا ملموسا، إذا ما تم تجاوز الخلافات المصطنعة، وتوافرت الإرادة السياسية، وتضافرت الجهود، من أجل بناء إفريقيا مستقرة وموحدة".

فالقارة الإفريقية قادرة على خلق معجزة إفريقية انطلاقا من مقارنة شاملة ومنسجمة تقوم على ثلاث ركائز أساسية تتمثل في:

- النهوض بالمواطن الإفريقي من خلال إعطاء الأسبقية لبرامج التنمية البشرية وتعزيز النمو الاقتصادي؛

- المساهمة الفاعلة في استتباب الأمن والاستقرار في القارة الإفريقية؛

- توطيد الروابط الروحية التي ظلت تربط عبر التاريخ، شعوب إفريقيا جنوب الصحراء بملك المغرب، أمير المؤمنين وتعزيز التعاون في المجال الديني مع الأشقاء الأفارقة، الذين عبروا عن رغبتهم في الاستفادة من النموذج الديني المغربي، القائم على المذهب المالكي، الذي يدعو إلى الوسطية والتسامح والاعتدال.

تأسيسا على ما سبق، فإن خلق المعجزة الإفريقية يستلزم توافر ثلاث عناصر أساسية هي: ضمان الأمن والاستقرار والنهوض بالتنمية البشرية، وتوطيد الروابط الروحية، ولعل هذه المعادلة على المستوى الإفريقي تمثل امتدادا وتوتيجا للتجربة المغربية (محاربة الإرهاب وضمنان الأمن والاستقرار، المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، الأمن الروحي)، حيث شدد جلالة الملك على أن ما تحتاجه بلدان القارة الإفريقية هو "إقامة وتفعيل تعاون جنوب- جنوب، تضامني وفعال، تنخرط فيه كافة الدول، وتجسده في استراتيجيات جهوية وإقليمية شاملة، تعتمد التنمية البشرية المستدامة كمحور أساسي لها".

وفكرة تحقيق المعجزة الإفريقية تسير جنبا إلى جنب مع مضامين الخطاب الملكي بمناسبة انعقاد المنتدى الاقتصادي المغربي الإفريقي بأبيدجان، حين أعلن الملك محمد السادس عن مفهوم جديد للعلاقات المغربية الإفريقية يقوم على الانخراط في شراكات ذات النفع المتبادل على اعتبار أن إفريقيا في حاجة إلى مشاريع التنمية البشرية خاصة ما يتعلق بتكوين الأطر والبنيات التحتية الأساسية والصحية²⁰.

وعلى هذا الأساس فالدبلوماسية المغربية تستهدف مكافحة الإرهاب وضمنان الأمن والاستقرار والانخراط التضامني الفعال في التنمية البشرية الإفريقية إن لم نقل "المبادرة الإفريقية

20 - لطيفة العروسي "إفريقيا قادرة على تحقيق معجزة قوامها ضمان الأمن والاستقرار والنهوض بالتنمية البشرية" جريدة الشرق الأوسط، 21 يونيو 2014م، العدد 12989

للتنمية البشرية "أسوة بالمبادرة الوطنية للتنمية البشرية"²¹ لربح رهان تحقيق المعجزة الإفريقية، وبلوغ هذا الهدف أبرم المغرب اتفاقيات في مجال تعزيز التنمية البشرية مع كل من الغابون والكويت ديفوار وغيرها، على اعتبار أن الانخراط في مجهودات التنمية البشرية يأتي كإجراء مصاحب لمقاربة إصلاح الحقل الديني في إطار المعالجة الوقائية من ظاهرة الإرهاب²²، وبذلك ارتأى المغرب نقل تجربته إلى البلدان الإفريقية في مجال التنمية البشرية التي أثمرت نتائج إيجابية ضد الإقصاء الاجتماعي والهشاشة وشجعت الأنشطة المدرة للدخل وضمان إعادة تأهيل العنصر البشري وتعزيز التنمية المستدامة إرساء السلام والاستقرار والتنمية البشرية المستدامة في المنطقة.

المبحث الثالث: دينامية البعد الديني في إفريقيا.

انطلاقاً من الاعتبارات التاريخية والجغرافية، فإن المغرب المتشبت بروح التعاون جنوب-جنوب، لا يدخر جهداً لمواكبة ودعم البلدان الإفريقية واثمين الروابط الروحية والثقافية المشتركة لجعلها في خدمة مصلحته الوطنية، فإبان الأزمة المالية لعبت الدبلوماسية المغربية- من خلال عضوية المغرب غير الدائمة بمجلس الأمن- دوراً حاسماً لرأب الصدع في هذا البلد من خلال استصدار قرار التدخل العسكري في مجلس الأمن لتحرير شمال مالي من الجماعات المسلحة، مما فتح الطريق أمام تدخل حاسم وتضامني لتسوية الأزمة المالية على أساس مقاربة شاملة ومندمجة،

21 - تعد المبادرة الوطنية للتنمية البشرية من الأوراش الملكية الكبرى، التي أعلن عن انطلاقها الملك محمد السادس في خطابه بتاريخ 18 ماي 2005 م وهي مشروع يجعل الإنسان في صلب الأولويات والسياسات العمومية، ويرتكز على محاربة الفقر والهشاشة وكذا الإقصاء الاجتماعي. وذلك من خلال إنجاز مشاريع دعم البنيات التحتية الأساسية، وتمثين الكفاءات وتحسين ظروف العيش وخلق المشاريع المدرة للدخل بهدف القضاء على الفقر.

وقد تمحورت المرحلة الأولى 2005-2010 من هذه المبادرة حول أربعة برامج، لفائدة مختلف الفئات المستهدفة:

- برنامج محاربة الفقر في الوسط القروي : همت 403 جماعة قروية لا يتعدى معدل الفقر بها 30٪

- برنامج محاربة الإقصاء الاجتماعي في الوسط الحضري : يستهدف هذا البرنامج 264 حيا حضريا

- برنامج محاربة الهشاشة : يستهدف هذا البرنامج 10 فئات من الأشخاص في وضعية هشة

- البرنامج الأفقي : يهم جميع الجماعات القروية والحضرية غير المستهدفة

كما أعطت انطلاقة المرحلة الثانية للمبادرة 2011-2015 ، دفعة قوية تجلت من خلال الرفع من الغلاف المالي هذا الأخير صار يناهز 17 مليار درهم، مع توسيع قاعدة الاستهداف لتشمل 702 جماعة قروية و532 حي حضري بالإضافة إلى برنامج خامس للتأهيل الترابي خصص له غلاف مالي إجمالي قدره 5 مليار درهم.

22 - في كلمة الكاتب العام لوزارة الشؤون الخارجية والتعاون، السيد ناصر بوريطة في جلسة بالأمم المتحدة - يوم 30 شتنبر 2014م بنيويورك- حول موضوع التجربة المغربية في ميدان محاربة الإرهاب، وذلك في إطار الجلسات التي نظمتها لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن الدولي، أشار السيد ناصر بوريطة إلى أن التجربة المغربية في مجال مكافحة الإرهاب تقوم على مقاربة واقعية وسياسات ناجحة في إطار إستراتيجية سياسية تقوم على إطلاق المبادرة الوطنية للتنمية البشرية سنة 2005م.

وتكثيف الدبلوماسية الروحية المغربية في هذا القطر الإفريقي (الوساطة المغربية بين الحكومة المالية والحركة الوطنية لتحرير أزواد الممثلة للطوارق) والبلدان المجاورة له للترويج للنموذج المغربي للمكافحة الإستباقية والوقائية للتطرف العنيف من خلال تكوين أئمة أفارقة بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشحات (مالي وغينيا كوناكري وتونس) والعناية بالطرق الصوفية واستباق معالجة الأزمات بطرح الإصلاحات اللازمة، بشكل يضمن خدمة المصالح الوطنية داخليا وخارجيا.

فالدynamية المتنامية للدبلوماسية الدينية في تفعيل العلاقات المغربية الإفريقية تستلزم المضي قدما في تكييف وتنقيح وبلورة سياسة خارجية إفريقية تبعا لبعد إستراتيجي متكامل ومندمج وطموح يهدف بالأساس إلى استغلال الفرص والإمكانات المتاحة في ظل الرهانات الإستراتيجية الدولية بالقارة الإفريقية والتي يفرضها احتدام التنافس بين عدد من القوى الدولية للوجود بهذه القارة، فالرؤية الإستراتيجية للمغرب الإفريقي تتأسس على خيار الانفتاح على المحيط الإفريقي، لذلك عكست الزيارات الملكية بإفريقيا تطورا نوعيا في الدبلوماسية الدينية والتضامن الروحي الذي يتحول إلى تضامن اقتصادي واجتماعي وثقافي بين المغرب والبلدان الإفريقية، بشكل يجسد عمق ديمومة العلاقات التاريخية المغربية الإفريقية القائمة على قاعدة مشتركة للقيم التي تنهل من الثوابت الدينية المغربية.

وبالنظر لمكانة المملكة المغربية كفاعل ديناميكي على الساحة الإفريقية، انطلاقا من الاهتمام البالغ لتسوية الأزمات في إفريقيا، فإن المغرب يؤسس دبلوماسيته الروحية على قيم التضامن والدعم اللامشروط لمجهودات البلدان الإفريقية الهادفة لتحقيق الإستقرار والرفاه الإفريقي.

فالدبلوماسية المغربية تبقى وفيه لروح التضامن الإفريقي، وتكتسي المقاربة التنموية للسياسة الخارجية المغربية تجاه إفريقيا قطب الرحي في العلاقات المغربية الإفريقية اعتمادا على مبادئ القرب والالتزام والتضامن، التي أسفرت عن رجوع المغرب إلى الإتحاد الإفريقي لتكريس مواكبة التحولات الجارية في القارة الإفريقية والحفاظ على الهوية الثقافية والعقائدية²³.

ولعل من أبر معالم دينامية البعد الديني في إفريقيا ما يلي:

23 - كلمة وزير الشؤون الخارجية والتعاون، السيد صلاح الدين مزوار، يوم الثلاثاء 27 مايو 2014م بالرباط، في اليوم العالمي لإفريقيا بالمغرب، تحت شعار "أفارقة من هنا وهناك".

1 - مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة باعتبارها إطارا مؤسساتيا يضطلع فيه العلماء بمسؤولية أداء واجبهم والقيام بأمانتهم، وتهدف هذه المؤسسة - التي أحدثت 32 فرعا في إفريقيا - إلى:

- توحيد وتنسيق جهود العلماء المسلمين بكل من المغرب وباقي الدول الإفريقية، للتعريف بقيم الإسلام السمحة ونشرها وترسيخها؛
- القيام بمبادرات في إطار كل ما من شأنه تفعيل قيم الدين السمحة في كل إصلاح تتوقف عليه عملية التنمية في إفريقيا سواء على مستوى القارة أو على صعيد كل بلد؛
- تنشيط الحركة الفكرية والعلمية والثقافية في المجال الإسلامي؛
- توطيد العلاقات التاريخية التي تجمع المغرب وباقي دول إفريقيا والعمل على تطويرها؛
- التشجيع على إقامة المراكز والمؤسسات الدينية والعلمية والثقافية؛
- إحياء التراث الثقافي الإفريقي الإسلامي المشترك من خلال التعريف به ونشره والعمل على حفظه وصيانه؛

- ربط الصلات وإقامة علاقات التعاون مع الجمعيات والهيئات ذات الاهتمام المشترك.

2 - معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات الذي أحدث بهدف تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات تكوينا يؤهلهم للقيام بمهمة تبليغ أحكام الشريعة الإسلامية، وبيان مقاصدها وإبراز سماحتها ووسطيتها واعتدالها، وقد انخرط هذا المعهد بفعالية في تفعيل الاتفاقيات المبرمة مع دول إفريقية والمتعلقة بتكوين أئمتها بالمغرب للاستفادة من التجربة المغربية في المجال الديني لمحاربة التطرف ونبد العنف الذي أصبح يهدد استقرار الدول الإفريقية²⁴، بحيث استقبل المعهد طلبة أئمة من مالي وتونس وغينيا كوناكري والسنغال والكويت ديفوار ونيجيريا الاتحادية وتشاد²⁵ لتمكينهم من تكوين يؤهلهم للقيام بمهمة تبليغ أحكام الشريعة الإسلامية، والمذهب المالكي والتعاليم الفقهية والأخلاقية التي تنبذ كل أنواع الغلو.

24 - Charlotte Bozonnet «Rabat mise sur sa diplomatie religieuse» LE MONDE, n 21857, samedi 25 Avril 2015

25 - «LE FAIT RELIGIEUX-débat autour d'une constante de l'entité marocaine» M. AHMED TOUFIQ, Ministre des Habous et des Affaires Islamiques en présence des nombreux Ambassadeurs et chefs de Mission Diplomatique accrédités à RABAT, Carrefour Diplomatique, Diplomatica, N 68, 2015, p.p 46-47

خاتمة:

تمثل إفريقيا أولوية استراتيجية للسياسة الخارجية المغربية نظرا للعلاقات الثقافية والدينية والانتفاء العميق للمغرب الإفريقي، وتبقى مدعوة إلى أن تكون أكثر جرأة في مبادراتها الهادفة إلى الاستجابة لتطلعات الشعوب الإفريقية، وقد تعززت العلاقات برجوع المغرب إلى الاتحاد الإفريقي وبفضل الزيارات التي قام بها جلالة الملك محمد السادس لعدد من الدول الإفريقية والمبادرات التي اتخذها المغرب من أجل تعزيز هذه العلاقات السياسة الإفريقية لبلادنا، كل ذلك أعطى نفسا جديدا لعلاقاتها بالدول الإفريقية لذلك جعل المغرب من التكوين عنصرا مهما وضروريا في برامج التعاون مع البلدان الإفريقية (دور معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات بالرباط في تكوين أئمة إفريقيا، ودور الوكالة المغربية للتعاون الدولي في نشر ونقل التجربة المغربية لأطر ومعاهد الدول الصديقة).

فالمغرب يضع رهن إشارة إفريقيا تجربته في مجال مكافحة الوقائية للإرهاب (التي ارتكزت على إصلاح الحقل الديني ومصاحبة هذا الإصلاح بالمبادرة الوطنية للتنمية البشرية) من خلال تجربة تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات، وكذا الإسهام في المجهودات المبذولة من طرف الدول الإفريقية في مجال التنمية البشرية (التجربة المغربية في مجال التنمية البشرية)، غير أن الطرح الانتقالي للعلاقات المغربية الإفريقية من مجرد علاقات جنوب - جنوب إلى العمل تحت مظلة الاتحاد الإفريقي يستلزم ضرورة الاقتران بإعادة التفكير في تفعيل وتحيين استراتيجيات التعاون التي تقوم عليها هذه العلاقات بهدف تحقيق التماسك بين الطموح المغربي بإفريقيا والرؤية الدولية لمحاربة الإرهاب عن طريق مقاربة شمولية تجمع بين إصلاح الحقل الديني ودعم مبادرات التنمية البشرية، لأن مكافحة المخاطر والتهديدات الأمنية التي تعرفها القارة الإفريقية تكون أكثر نجاعة إذا اعتمدت على مقاربة متكاملة، مندمجة ووقائية ومنسقة بين المغرب والدول الإفريقية، ضمن استراتيجية شمولية تدمج البعد الأمني بالبعد التنموي والروح التضامنية مع البعد الروحي للعلاقات المغربية الإفريقية.

مفالات عامة

صلة القواعد الفقهية والأصولية بالأشباه والنظائر والفروق

د. إدريس الزعري المباركي
كلية الشريعة - فاس -

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن للقواعد الفقهية والأصولية أهمية بالغة في إبراز جلال الشريعة وثناء أصولها، وتجلية رقي فكر علمائها وسعة مدارك مجتهديها؛ فهي التي تكسب الملكة الفقهية المؤهلة للاجتihad والترجيح والاستدلال ... لذلك تنافس فيها العلماء، وتفاضل الفضلاء، وجعلوا امتلاك ناصيتها مقصدهم الأسمى وغايتهم الأسنى.

وإذا كان استحضار الفروع الفقهية المتشعبة والإحاطة بالجزئيات المنتشرة أمراً شاقاً وعسيراً، خاصة والوقائع ما زالت تكثر وتتفرع، والحوادث تثرى وتنوع، فإن إحكام القواعد وفهم المآخذ وضبط المدارك يغني عن حفظ الجزئيات التي لا تكاد تنتهي، ويساعد على حصر الفروع المتناثرة والنظائر المنتشرة، في كليات جامعة وقوانين متحدة.

وبفهم هذه القواعد تتسع مدارك المجتهد ويعلو نجمه ويعظم قدره، وتنجلي له حقائق الفقه ومقاصد التشريع، ولولا هذه القواعد لظلت الفروع الفقهية متفرقة مشتتة لا يسهل الرجوع إليها، ولا يتأتى حصرها ولا حفظها واستحضارها.

وأما القواعد الأصولية فهي لب علم الأصول وجوهره، وهي خلاصة مناهج الاجتهاد والاستثمار والنقد والتعليل، فبواسطتها تيسر سبل استفادة الأحكام، ويسهل ضبط أصول الاستدلال، وبإعمالها تتأتى المقارنة بين المذاهب الفقهية، والموازنة بين الأقوال والآراء الاجتهادية، وبإحكامها تتعزز ملكات المجتهدين ويتقوى الفكر النقدي لديهم.

ولولا القواعد الأصولية لاستعصى فهم أدلة الأحكام وإدراك عللها ومناطاتها، وتعذر الكشف عن مقاصد الشريعة ومحاسنها، بل لولا هذه القواعد ما أدركنا من الشريعة قليلا ولا كثيرا؛ فإن فهم الشرع وإثباته بغير أدلته وقواعده مجرد اتباع للهوى وارتكانٍ للتشهي.

ونظرا لقيمة هذه القواعد ومكانتها في التشريع الإسلامي، واعتبارا لبالغ أثرها في تكوين وصقل الملكة الفقهية، فقد حظيت بعناية الفقهاء والأصوليين منذ عهد مبكر؛ حيث بدأ التأليف فيها أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث، ثم توالى التأليف فيها بعد ذلك حتى عمّت جميع المذاهب الفقهية؛ فقد هيأ الله تعالى في كل مذهب منها نخبة من الأئمة الأعلام سهرت على استخلاص هذه القواعد وتدوينها في مؤلفات خاصة .

وإن المتتبع لجهود علمائنا في إثراء حركة نمو وتدوين القواعد الفقهية والأصولية ، ليلحظ مدى غزارة إنتاجهم، وتنوع مؤلفاتهم، وتميز مصنفاتهم... من مؤلفات في القواعد، وأخرى في الضوابط والكليات الفقهية، إلى مصنفات في الأشباه والنظائر، إلى مدونات في المجموع والفروق... فريدة في بابها، مميّزة في أسلوبها، أصيلة في موضوعها ومنهجها... مؤلفات مستعملة بإطلاقات عديدة، وتحت عناوين متنوعة، يشتركان في بعضها، وتنفرد كل واحدة منهما بمسميات خاصة بها¹.

وتعد الأشباه والنظائر والفروق من أبرز وأهم تلكم الإطلاقات ... فهل هي من ضروب القواعد الفقهية أو الأصولية؟ وهل يصح إطلاقهما عليها وتسميتها بهما؟ ذلك ما تروم هذه الكلمة بيانه، من خلال المبحثين الآتين، والله تعالى نسأل السداد والتوفيق.

1 - أطلقوا على بعض مؤلفاتهم اسم الأشباه والنظائر، وسموا بعضها الآخر بالأصول ، وأطلقوا على بعضها اسم : الكليات أو الضوابط، في حين اختار بعض العلماء تسمية مصنفه في القواعد باسم: الفروق، أو الفرق والاستثناء، أو المجموع والفروق... يراجع: مبحث إطلاقات القواعد الفقهية والأصولية في كتاب القواعد الفقهية والأصولية دراسة تأصيلية للمؤلف (مطبعة وراقه بلال بفاس، الطبعة الثانية، 1439 هـ / 2018 م): من ص 27 إلى ص 44.

المبحث الأول: القواعد وصلتها بالأشباه والنظائر².

الأشباه والنظائر في لسان العرب بمعنى واحد، فشبه الشيء مثله، ونظيره. قال ابن منظور: "الشَّبه والشَّبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه. وأشبه الشيء الشيء: ماثله. وفي المثل: من أشبه أباه فما ظلم"³.
وأما المثل: ف" كلمة تسوية. يقال: هذا مثله ومثله، كما يقال شَبَّهه وشَبَّهه بمعنى⁴... وإذا قيل: هو مثله في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون جهة. والعرب تقول: هو مُثِّلٌ هذا وهم أُمثِلُهُمْ، يريدون أن المشبه به حقير، كما أن هذا حقير. والمِثْلُ: الشَّبه. يقال: مثل ومثَّل وشَبَّه وشَبَّه بمعنى واحد..."⁵.

وفي اللسان أيضا أن النظر: المثل "والنظائر: جمع نظيرة، وهي المثل والشَّبه في الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال"⁶.

وقد حقق السيوطي (ت 911 هـ) معنى كل من المثل والشبيه والنظر في الاصطلاح، فذكر أن المماثلة هي المساواة من كل وجه، وأن المشابهة هي الاشتراك في أكثر الوجوه لا كلها، وأن المناظرة يكفي فيها الاشتراك في بعض الوجوه ولو كان وجهها واحدا⁷.

وعليه فهذه المفردات تتدرج دلاليا في قوة الاشتراك⁸ فأقواها المثل، ثم الشبيه، ثم النظر، وأخصها المثل وأعمها النظر، وما بينهما شبيه⁹.

2 - يراجع هذا المبحث في: القواعد الفقهية للدكتور يعقوب الباسين: ص 90-99. وفي أطروحة: شرح البواقيت الثمينة فيما انتمى لعالم المدينة التي قدمها الأخ العزيز الباحث المتألق: الأستاذ كمال بلحركة لنيل شهادة الدكتوراه- شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب ظهر المهرز بفاس سنة: 1426 هـ/ 2005 م: 89/1 وما بعدها.

3 - لسان العرب (دار صادر، بيروت - لبنان): مادة: شبه: 503/13.

4 - قال ابن بري: الفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين؛ لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين، تقول: نحوه كنهوه وفقهه كفقعه ولونه كلونه وطعمه كطعمه، فإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يسد مسده". لسان العرب: مادة: مثل: 610/11.

5 - المصدر السابق: مادة مثل: 610/11.

6 - نفسه: مادة نظر: 219/5.

7 - يراجع: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 209/3.

8 - فرق أبو هلال العسكري بين الشبه والشبيه، وذكر أن الشبه أعم من الشبيه، وأن الشبه يختلف عن المثل؛ لأن الشبه يستعمل فيما يشاهد، فيقال السواد شبه السواد، ولا يقال القدرة، كما يقال مثلها. وإن المثل والنظر يختلفان في أن المثل ما تكافأ في الذات، والنظر ما قابل نظيره في جنس أفعاله، وهو متمكن منها، كالنحوي نظير النحو، وإن لم يكن له مثل كلامه في النحو وكتبه فيه، ولا يقال النحو مثل النحو لأن التماثل يكون حقيقة في أخص الأوصاف وهو الذات. الفروق: ص 125 وما بعدها.

9 - الحاوي للفتاوي للسيوطي: 273/2.

ونظرا إلى أن المثل ليس من إطلاقات القواعد، فسنعصر الكلام هنا على الشبيه والنظير.

ويعد كتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أبي موسى الأشعري، سندا لمثل هذا الإطلاق. فمما جاء فيه: "اعرف الأمثال والأشياء، ثم قس الأمور عندك، فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى"¹⁰.

قال الإمام أبو عبد الله الخطاب: "النظائر جمع نظير وهو المثل، والمراد المماثلة في حكم من الأحكام"¹¹ وسماها البعض أشباها، وأطلق عليها البعض اللفظين معا فسمها: الأشياء والنظائر كابن الوكيل وابن السبكي من الشافعية وابن نجيم من الحنفية.

وقد عدَّ الإمام الشافعي - رحمه الله - المشابهة أحد وجهي القياس فقال: "والقياس من وجهين: أحدهما أن يكون الشيء في معنى الأصل، فلا يختلف القياس فيه، وأن يكون الشيء له في الأصول أشباه، فذلك يلحق بأولاهها به، وأكثرها شبيها فيه، وقد يختلف القايسون في هذا"¹².

قال ابن السبكي: "اعتبر الشافعي - رضي الله عنه - قياس غلبة الأشياء، وهو أن يجذب الفرع أصلا ويتنازعه مأخذان، فينظر إلى أولاهما وأكثرهما شبيها، فيلحق به، وعليه نص في الأم"¹³. وقد مثلوا لذلك بلفظ الظهار؛ فقد دار بين أصليين: القذف والطلاق، وكذا بالكفارة التي تتردد بين العباداة والعقوبة، واللعان بين اليمين والشهادة، والإقالة بين الفسخ والبيع. وعليه تبني مسائل خلافية ومذهبية¹⁴.

والمراد بالنظائر لدى الفقهاء: المسائل المشتركة في حكم من الأحكام التي لا يوجد ما يربط بينها في الغالب. قال الأستاذ كمال بلحرقة: "وهو الغالب في النظائر لأن التماثل في الحكم لا يقتضي

10 - الأشياء والنظائر للسيوطي (دار الفكر): ص 7، ويراجع نص كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في: إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (راجع له وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت - لبنان): 85/1 وما بعدها.

11 - تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة بتحقيق الدكتور أحمد سحنون (نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية 1409 هـ/ 1988 م): ص 147.

12 - الرسالة للشافعي (بتحقيق أحمد محمد شاكر، دار الفكر): ص 479.

13 - الأشياء والنظائر لابن السبكي (تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1411 هـ / 1991 م): 182/2.

14 - يراجع المصدر السابق: الجزء والصفحة نفسها.

التماثل في القاعدة"¹⁵، وقد تندرج النظائر أحيانا تحت قاعدة معينة تجمع بينها، وقد تكون استثناء من قاعدة، كما أن المسألة الواحدة قد تدخل ضمن العديد من النظائر.

والنظائر صنو القواعد من حيث الأهمية والمكانة بين مختلف فنون الفقه وأصوله، وإن وقوف الفقهاء على النظائر هو سبب بحثهم عن الخيط والسلوك الناظم أي: الحكم الذي يربط أو العلة الجامعة بينها رغم تنوع مسائلها واختلاف الأبواب التي تنتمي إليها. فإذا وجدوا حكما عاما جامعا أو علة مشتركة بين تلك النظائر أدرجوها تحت قاعدة واحدة فقهية كانت أو أصولية... وإن لم يجدوا ما يربط بينها اكتفوا بذكر الفروع والمسائل تحت عنوان "النظائر"، وهو الغالب¹⁶. والله أعلم.

وعليه فإن الفرق بين الأشباه والنظائر والقواعد هو أن القواعد تمثل الرابط أو الحكم الجامع للفروع المتشابهة، أو المعنى العام المشترك بينها، والأشباه والنظائر تمثل الوقائع الجزئية التي تتحقق بها تلك الأحكام أو تنتفي عنها. فمن نظر إلى المعنى الجامع والرباط بين الفروع اتجه إلى إطلاق "القواعد"، ومن نظر إلى الفروع الجزئية اتجه إلى إطلاق "الأشباه والنظائر".

ثم إن هذه النظائر قد يكون فيها من الأوصاف ما يمنع من إلحاقها بما يشبهها في الحكم¹⁷. ولها حينئذ بحث يخصها هو الفن الذي يسمى: الفروق "ففيه يذكر الفرق بين النظائر المتحددة تصويرا ومعنى، المختلفة حكما وعلة"¹⁸ وهو الذي سيرد الحديث عنه في المبحث الموالي، علما بأن اصطلاح "الأشباه والنظائر" أكثر تعبيراً ودلالة على موضوعات كتب القواعد بوجه عام.

المبحث الثاني: القواعد وصلتها بالفروق

الفرق خلاف الجمع وهو في اللغة بمعنى الفصل، تقول: فرقت بين الشيء، فصلت أبعاضه؛ وفرقت بين الحق والباطل: فصلت، ومنه قوله تعالى: "قال ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين" [سورة المائدة: 25]، قال ابن عباس وغيره: المعنى افصل بيننا وبينهم بحكم¹⁹.

15 - أطروحة شرح البواقيت الثمينة فيما انتمى لعالم المدينة (مرقونة بكلية الآداب ظهر المهرار بفاس، قدمها الأخ العزيز الباحث المتألق: الأستاذ كمال بلحركة لنيل شهادة الدكتوراه - شعبة الدراسات الإسلامية - سنة: 1426 هـ/2005م): 89/1، وهذا ليس على إطلاقه بل إن الأصل هو أن التماثل في العلل يوجب التماثل في الأحكام. والله أعلم.

16 - يراجع: شرح البواقيت الثمينة فيما انتمى لعالم المدينة: 89/1 - 90.

17 - الأشباه والنظائر للسيوطي: ص 7.

18 - المصدر السابق.

19 - المحرر الوجيز: 405/4.

وفي الاصطلاح هو تمييز المسائل التي ظاهرها الاتفاق، غير أن أحكامها مختلفة، فيتوهم من ليس له علم بالفروق والأشباه والنظائر أن الشريعة الإسلامية متناقضة وأنها مبنية على غير أساس²⁰. وقد ذهب جلال الدين السيوطي إلى أن "من النظائر ما يخالف نظائره في الحكم لمدرَك خاص به وهي الفن المسمى بالفروق، الذي يذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويراً المختلفة حكماً وعلة"²¹.

ولعلم الفروق قيمة كبيرة فهو من أدق وأنفع علوم الشريعة وأرفعها شأنًا؛ فبه يقع التمييز بين الأشباه والنظائر، وإليه يُستند في الفصل بين أحكام الفروع المتشابهة... وبه يُستعان على فهم الفقه فهما صحيحا، وبه يقتدر على نفي شبه القائلين بوجود التناقض في أحكامه...

وإن من تمام محاسن هذه الشريعة المباركة وعِظَمِها أنها جاءت موافقة للعقول السليمة وملائمة للفطر المستقيمة؛ فكما أنها جمعت بين المتماثلين وفرقت بين المختلفين، فقد ساوت - أحيانا - بين المختلفات التي ظاهرها التشابه، وقرنت الشيء إلى غير شبيهه في الحكم... "وما اشتركت صورتان في حكم إلا لاشتراكهما في المعنى المقتضي لذلك الحكم، ولا امتازت صورة من تلك الصور بحكمها دون الصورة الأخرى إلا لمعنى قام بها أوجب اختصاصها بذلك الحكم"²²، فالاعتبار في الجمع والفرق إنما هو بالمعاني التي لأجلها شرعت تلك الأحكام وجودا وعدما"²³.

ولا يخفى أن فكرة التفريق بين المعاني لم تنحصر في مجال الفقه الإسلامي وأصوله، بل ظهرت في سائر العلوم بقصد الفصل والبيان والتمييز:

ففي مجال اللغة ألف أبو هلال العسكري (أحد أعلام القرن الرابع الهجري) كتابه الشهير في الفروق، وألف أبو العباس أحمد السرخسي (ت 286هـ) كتاب الفرق بين النحو والمنطق، وفي العقائد ألف الباقلاني (ت 403هـ) كتاب: تصوّف العباد والفرق بين الخلق والاكتساب، كما ألف الفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وفي أصول الفقه ألف جملة من العلماء مجموعة من الرسائل والمؤلفات...

20 - عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، بتحقيق حمزة أبو فارس (دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م): ص 52.

21 - الأشباه والنظائر: ص 5.

22 - علماً بأنه لا يضر افتراقهما في غيره، كما أنه لا ينفع اشتراك المختلفين في معنى لا يوجب الحكم.

23 - ابن القيم: 35/2 وما بعدها.

فهل الفروق والقواعد مترادفان على معنى واحد، متساويان على الحد والحقيقة، وإنما الاختلاف في اللفظ والاصطلاح؟ وبالتالي فلا فرق بينهما، أو أن هناك فروقا من حيث مفهوم اللفظين ودلالة المصطلحين؟

الواقع أن هذه المسألة بالذات من أدق الإشكالات العلمية التي تحتاج لإدراك دقائقها وبيان خفاياها تحريك جملة من الأسرار التي قد لا تتبين بهذا الإطلاق والإجمال، وإنما ينكشف الغطاء عنها بما يتطلبه المقام من البحث والاستقصاء... ولا أريد أن يفوتني هذا المقام دون الإسهام ببعض الإشارات المعينة على شيء من الإيضاح والبيان.

كلنا يعلم أن الفروق الفقهية تشترك مع القواعد الفقهية والأشباه والنظائر في كونها قد ارتبطت في نشأتها الأولى بعلم الفقه الإسلامي، ففي أحضانه نشأت، وبسببه نمت وتطورت؛ شأنها في ذلك شأن مجموعة من الفنون... كالضوابط والكليات، وفن الألغاز والحيل، وفن الفرائض أو المواريث، وفن الخلاف العالي أو الفقه المقارن، هذا فضلا عن فن المغالطات والمطارات²⁴ وغيرها من فنون الفقه الإسلامي.

فبعد استقرار المذاهب الفقهية الكبرى، وانصراف كبار أتباعها إلى تحريرها وتدوينها وترتيب أصولها وفروعها وُجد في كل مذهب من تلك المذاهب عدد من الفقهاء المجتهدين عملوا على تصنيف الفقه فنونا، وتفريعه أقساما؛ فظهرت بسبب ذلك فنون انضوت تحت لوائه، واندرجت تحت موضوعه، وذلك قبل أن تستقل بموضوعاتها ومباحثها... إذاً فالجامع المشترك بين الفروق والقواعد الفقهية والأشباه والنظائر أنها من منبع واحد وأصل موحد.

صحيح أن الفروق من الفنون التابعة للأشباه والنظائر، ذلك أن من النظائر ما يخالف نظائره في الحكم لمُدرَك خاص، والفن المسمى بالفروق - مثلما سبق - هو الفن الذي يذكر فيه الفرق بين النظائر والفروع التي ظاهرها الاتحاد والتشابه، وهي متباينة في حقيقة أمرها، وذلك ما يقتضي دقة في التأمل وعمقا في النظر.

- فقد أوجب الشارع - مثلا - غَسْل الثوب من بول الصبية والنضح من بول الصبي مع تساويهما واتحادهما.

24 - هي عبارة عن مسائل عويصة يقصد بها تنقيح الأذهان.

- ونَقَصَ الشَّطْرَ من صلاة المسافر الرباعية وأبقى الثلاثية والثنائية على حالهما.
 - وأوجب - من تمام رحمته تعالى بعباده وإحسانه إليهم بشرعه - قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة مع أن الصلاة أولى بالمحافظة عليها...
 - كما أوجب حد الفرية على من قذف غيره بالزنا دون من قذفه بالكفر وهو شرٌّ منه.
 - واكتفى في القتل بشاهدين دون الزنا، والقتل أكبر من الزنا كما هو معلوم...
 - وفرق في العدة بين الموت والطلاق مع استواء حال الرحم فيهما.
 - وأباح للرجل أن يتزوج أربعاً ولم يباح للمرأة إلا رجلاً واحداً مع وجود الشهوة وقوة الداعي من الجانبين.
 - وجوّز للمسافر المترفّ في سفره رخصة القصر والفطر دون المقيم.
- إلى غير ذلك من الأشياء والنظائر التي ظاهرها الاتحاد والتشابه لكن الشارع فرق بين أحكامها لافتراقها في الصفات والمعاني التي اقتضت افتراقها في الأحكام...
- ومن هنا كانت الأشياء والنظائر مجالا خصبا لفن الفروق الفقهية، وكانت الفروق الفقهية من الفنون التابعة لتلك الأشياء والنظائر.
- لكن إذا صحَّ كونُ الفروق من الفنون التابعة للأشياء والنظائر - اعتباراً لما ذكر - فإنه لا يمكن التسليم بكونها ضرباً من ضروب القواعد الفقهية؛ ذلكم أن كلا من القواعد والأصول والضوابط والكليات الفقهية تمثل الوجه الآخر للفروق؛ فهي تقوم بعكس وظيفتها تماماً... خلافاً لما قد يتوهم من أنها ضرب واحد.
- فالأشياء والنظائر إما أن تتحد في الحكم أو تختلف فيه... فإذا اتحد حكمها اجتمعت تحت قاعدة فقهية واحدة، اعتباراً لكون القاعدة الفقهية هي التي تجمع الأشياء والنظائر من باب فقهي واحد أو من أبواب فقهية مختلفة... وأما إذا اختلف حكم الأشياء والنظائر لمدرّك أو لمعنى اقتضى افتراقها في الأحكام فذاك هو عين الفروق...

وتعتبر العلة التي هي الوصف أو المعنى الجامع المشترك بين الأصل والفرع، الذي باعتباره صحت تعدية الحكم... هي المناط الجامع والخيطة الرفيع الرابط بين كل من القواعد والأشباه والنظائر والفروق الفقهية... ذلكم أن القاعدة - كما سبق - هي التي تمثل الرابط والجامع بين الفروع المتشابهة، والنظائر المتحدة، وما اجتماعها تحت حكم شرعي كلي واحد - المعبر عنه بالقاعدة أو الأصل أو الضابط أو الكلي - إلا لكون فروعها من النظائر المندرجة تحتها ذات وصف أو معنى موحد جامع ومشارك بين كل تلك الفروع، استحقت على أساسه أن تسمى أشباها ونظائر...

وعلى العكس من ذلك فإنما تختلف النظائر وتفرق الأشباه في الحكم، لاختلاف أوصافها وتمييز عللها ومعانيها... فالاتحاد في العلل والأوصاف والأمارات موجب لاتحاد الأحكام، والعكس صحيح؛ ما دام الاختلاف في أحدها موجبا وباعثا على الاختلاف في الآخر... فإذا نظرنا إلى المعنى الجامع والخيطة الرابط بين الفروع فتلك هي "القواعد"، وإذا نظرنا إلى اختلاف الفروع في أوصافها وعللها ومعانيها الجزئية فتلك هي الفروق الفقهية، وهذا معنى قولهم: "الفقه فرق وجمع" والاعتبار في الجمع والفرق إنما هو بالمعاني والعلل التي لأجلها شرعت تلك الأحكام وجودا وعدما. والله تعالى أعلم وأحكم.

ثم إن الفروق تكون تارة بين فرعين، أو بين أصل وفرع، وتارة بين قاعدتين فقهيتين أو أصوليتين، وتارة أخرى بين مفردات لغوية أو اصطلاحية لها علاقة بالفقه أو بالأصول، أو بغيرهما من العلوم والفنون.

ويترتب على إقامة الفرق أحكام مختلفة، كما في الفرق بين الشهادة والرواية مع ما يظهر من تشابه في كون كل منهما يتضمن نقل خبر، وقد حكى شهاب الدين القرافي أنه أقام يطلبه نحو ثمان سنين، و كان يسأل العلماء عن هذا الفرق فلم يظفر به إلا في شرح البرهان للمازري...

يتخلص مما سبق أن الفقهاء المجتهدين مثلما حرصوا على معرفة أوجه الشبه لجمع النظائر تحت قاعدة واحدة، كذلك اهتموا باستجلاء أوجه الفرق بين النظائر والتمييز بين الأشباه، والفصل بين الفروع المتماثلة تحت الفن المسمى بالفروق... ثم إن هذه الأشباه والنظائر إما أن تتحد في الحكم أو تختلف فيه، فإذا اتحد حكمها انضوت تحت قاعدة واحدة، اعتبارا لكون القاعدة الفقهية هي التي

تجمع الفروع من باب فقهي واحد أو من أبواب فقهية شتى... وأما إذا اختلف حكم تلك الأشياء والنظائر لمدرک أو لمعنى اقتضى افتراقها فذاك هو عين الفروق.

وعليه فإن الفرق خلافُ الجمع وليس ضرباً من ضروبه، ولا هو ضرب من ضروب القواعد والمعاني الجامعة...

ختاماً نسأل الله تعالى التوفيق لبيان أصوله وخدمة شريعته وإعلاء كلمته، وصل اللهم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين... والحمد لله رب العالمين.

ريادة المغاربة في التأليف في علم مُشكِـل الحديث: تعريف وتوصيف

د. عبد الله التورّاتي
باحث في علوم الحديث - الرباط

تفنّن المغاربة في صناعة التأليف الحديثية تفنُّناً ظاهراً، كانت لهم في كثير من أوضاعهم فرادة وريادة؛ وضربوا بحظ وافر في الجوانب المتعلقة بفقه الحديث؛ وهو الثمرة المرجوة من النظر في علوم الحديث وفنونه، ونظرة عابرة في كُتب ودواوين الحديث المشرقية تكفي للخروج بفائدة عظمية خلاصتها: «أنّ المعوّل في دَقِيقِ فِقْهِ الحديث إنّما هو على كُتب المغاربة»؛ فهم الذين حملوا لواء ذلك، وأفنوا أعمارهم في سبيل تلك المسالك.

ومن الفنون التي برّزوا فيها واعتلّوا فيها منزلة عظيمة علمُ مُشكِـل الحديث، فألّفوا تأليف جليلة، وصنّفوا تصانيف نبيلة، كان لها وَقْعُها وأثرُها على الدَّرْسِ الحديثي بالمغرب والمشرق، وكانت أنظارُهم محلّ اقتدار واعتبار من قبل المُتشرِّعة والمتؤوِّلة، ولربما أزاحوا كثيراً من الحُجب عن تلك المضايق التي طالما تردّدت فيها أنظارُ غيرهم، فكانت مؤلّفاتهم -بحقّ- مبعث فخر واعتزاز، ومحلّ تقدير وتعظيم.

وقد سعيْتُ جاهداً في دراستي هاته إلى تبيان مواضع الريادة ومواطن الفرادة في هذا اللون من ألوان التأليف، مع التنبيه على خصائص التأليف في هذا الفن؛ عسى أن يفتح بابٌ جديد يكون مدخلاً إلى إظهار مزيد من الشفوف والاقتدار عند أسلافنا من علماء المغرب في تأليفهم في علم مُشكِـل الحديث؛ تقريراً، وتقعيداً، وبَسْطاً، وتدويناً.

1) تعريف علم مُشكِـل الحديث:

عُرف قديماً باسم مُخْتَلَفِ الحديث، وكان نظراً النُّقَادِ في جملة الأحاديث التي ادّعى فيها بعضهم معارضتها لأحاديث أخرى، ويندرج القول فيها شاكل هذه الأحاديث في باب تعارض وتضاد الأخبار، وعلى ذلك بنى الإمام الشافعي كتابه، وترجمه باسم «اختلاف الحديث»¹.

1 - ينظر: نزهة النظر لابن حجر: (36).

ثم ترقى الأمر إلى أن طعن بعض المتكلمة في جمهور أهل السنة، وخصَّ طائفة أهل الحديث بالنِّبْزِ واللَّمْزِ، وجعلوهم ممَّن يروي المتناقضات، ويذكر المحالات، فنهض بعض أهل العلم إلى مجاباتهم، كان منهم ابن قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي، فألَّف كتابه «تأويل مختلف الحديث».

وقد جعل ابن قُتَيْبَةَ الكلام في هذا اللون من ألوان الحديث من باب الكلام فيما يُشكِّل فهمه، فقال: «ولو ردُّوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما؛ وَضَحَ لهم المنهج، واتَّسَعَ لهم المخرج»².

وبهذا كان مُخْتَلِفُ الحديث ينطبق تمام المطابقة على مُشكِـل الحديث، ويلتحق بهما ضرب آخر من وجوه التسمية؛ وهو المتشابه من الحديث.

قال ابن قُتَيْبَةَ: «يقال لكل ما غمض ودَقَّ: متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشَّبه بغيره .. ومثُل المتشابه: المُشكِّل، وسُمِّي مُشكِـلاً: لأنه أَشكَلَ، أي: دخل في شَكْل غيره؛ فأشبهه وشَاكَلَه»³.

وهذه الألفاظ الثلاثة تتداخل لتدلَّ على معنى واحد، وإن كان من الجائز افتراقها واختصاص كل واحدة منها بأمر تنفرد به عن الأخرى، وإن كنتُ أجزم أنَّ لفظ المتشابه أسبق وأحق؛ لاعتناء أهل القرآن به؛ إذ الكلام في المتشابه من الآي أصل الكلام في المتشابه من الحديث، وأصل النظر في مُشكِـله ومُخْتَلِفِه.

وغلب على أهل الاصطلاح الحديث عن مُخْتَلِفِ الحديث دون الإشارة إلى المتشابه أو المشكل، وغلب عليهم ذِكْرُ جنس واحد من أجناسه؛ وهو ما كان من قَبِيل المتعارض من السُّنَنِ والأخبار⁴.

وبعد النظر في جملة هذه التعريفات والتوصيفات يمكن القول: «إنَّ مُشكِـل الحديث يختص بالكلام في دقيق مسائل الحديث وعَوِيصها التي تعزب -عادة- عن عامَّة أهل العلم، وسواء أكان ذلك في الأسانيد أو في المتون، وإن كان الأغلب على المتولِّين للكلام في هذا الفن الحديث في المتون وفقَّهها، مع ذِكْرِ وجوه التخلص من الشُّبُه، ونقض دعاوى المعارضة والتضاد، وإبطال نسبة المحالات إلى الشريعة، دون الحديث عن الأسانيد وطُرُقها».

2 - تأويل مختلف الحديث: (ص 61)، وينظر -أيضاً-: شرح مشكل الآثار: (6/1 - شُعَيْب).

3 - تأويل مشكل القرآن لابن قُتَيْبَةَ: (ص 102 - صقر).

4 - ينظر: معرفة علوم الحديث للحاكم: (ص 382 - السلوم)، ومعرفة أنواع علم الحديث لابن الصلاح: (ص 390 - الفحل)، ونزهة النظر لابن حجر: (ص 35).

وعلى هذا فمُشكِـل الحديث قِسْمَان⁵:

- قسم مختص بالأسانيد؛

- وقسم مختص بالمتون؛

وفي كل قسم من هذين القسمين كُتِبَ ومصنَّفات، ودواوين ومؤلفات.

(2) الحاجة إليه:

وهو فنٌ يُحتاج إليه في كل زمان؛ إذ يظهر للناس ما يدعوهم إلى النظر في جملة من الأحاديث التي يُدَّعى تعارضها وتضادها، وقد كان في كل زمان قائم لله بالحجة والبيان والبرهان؛ ينفذ عن تلك الأحاديث دعوى الجاهلين، وغلط المتأولين، وتناقض المتناقضين.

ولا يتولَّى النظر فيها إلا «الأئمة الجامعون بين صناعتَي الحديث والفقه، الغَوَّاصون على المعاني الدقيقة»⁶.

والذي دعا العلماء إلى التصنيف فيه رغبتهم في تنزيه الشريعة عن المطاعن، وأول شارع لهذا الباب ابن قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِي، ثم أبو جعفر الطَّحَاوِي، وبعدهما ابن حِبَّان البُسْتِي، ثم توارد الناس على ذلك، واختلفت مقاصدهم وأغراضهم، وتفنَّنَ الجُمُ الغفير منهم في التأليف والتصنيف.

قال الإمام عبد الجليل القَرَوِي - كان حيًّا عام 478هـ - مُبينًا عن الداعي إلى الكلام في مُشكِـل الحديث: «ولا وجه لقول من أنكر ذلك ومنع من الكلام فيه؛ لأن ذلك يقتضي الكفَّ عن الكلام في مُشكِـل القرآن أيضًا، وذلك خلاف ما أمر الله به من تدبر القرآن، فمن أمرنا ألا نتدبَّر وأن نُعرض عن مواضع الإشكال منه فأمره مرفوض غير مسموع، بل الواجب أن يتدبَّر ويتأمَّله ويتأوَّله على ما يليق به ويَحْسُنُ، وعلى ما تقتضيه الأدلة، فنكون حينئذ قد فعلنا ما أمرنا الله تعالى به، وليس في الوجوه التي يَطعن علينا بها المخالفون ويستضعفون آراءنا ويحتقرون علومنا وينسبوننا إلى الغفلة وقلة التحصيل والبلْه والقول بالتقليد والاتباع بغير حجة أعظم من هذا الوجه؛ لأنهم يقولون: إذا أطعتم مَنْ لا علم عنده بالمعاني مَنْ أمركم بالإعراض عن القول في متشابه القرآن ومتشابه الحديث؛ فأنتم على غاية من قلة التحصيل والبُعد عن العلم بما كُفِّتُمُوهُ وأنزل في كتابكم، فمن نظر لنفسه

5 - ينظر: معرفة أنواع علم الحديث لابن الصلاح: (ص 390-391).

6 - معرفة أنواع علم الحديث لابن الصلاح: (ص 390- الفحل).

واستبرأ لدينه يُحِبُّ هذه الطريقة، ولم يَسْعَ فيها إلى قول قائل - وإن جَلَّتْ وعَظُمَتْ منزلته في الدنيا - بالإعراض عن النظر في مُشكِـل القرآن ومُشكِـل الحديث»⁷.

وفي هذه الكلمة الدلالة البيّنة على أهمية الكلام في مُشكِـل الحديث، وفيها -أيضاً- الشواهد اللائحة على واجب التأليف والتدوين فيه.

(3) مؤلفات المغاربة في علم مُشكِـل الحديث:

وقد تنوّعت مؤلفات المغاربة في هذا الفن تنوعاً، وتعدّدت طرائق المصنفين فيه، على حسب أغراضهم، ومحلّ أقدارهم، وأذكرُ في هذا المبحث تعريفاً موجزاً بهذه الكتب، من غير قصد إلى استقصاء أو استقرار.

الأول: الأجوبة المستوعبة على المسائل المستغربة

من كُتِبَ الإمام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي ت463هـ، وهو منشور منتشر، وأصله سؤالات وردت إليه من ابن أبي صُفرة⁸ المروى⁹؛ عن أحاديث استغلقت عليه، وأشكلت لديه، لوجود معارض لها يضادّها، على حسب فهمه الذي فهمه، ونظّره الذي نظّره، فنَهَدَ ابنُ عبد البر إلى تلك الأسئلة وأجاب عنها؛ بما يفتح مغالقتها، ويكشف غوامضها.

وتلك الأحاديث المُسْتَشْكَلَةُ ممّا وردت في الجامع الصحيح لأبي عبد الله البخاري، وكانت عدّها اثنين وعشرين حديثاً.

الثاني: الآثار التي ظاهرها التعارض ونفي التناقض عنها

وهو من كُتِبَ الإمام الحافظ أبي محمّد علي بن حزم الأندلسي ت456هـ، ولم نقف لهذا الكتاب على أثر في زمننا هذا، ومَن ذَكَرَهُ له الإمام أبو عبد الله الذهبي¹⁰، وهذا الكتاب في عشرة آلاف ورقة¹¹، وهو مقدار جليل، وجِرم كبير، والعجبُ كيف ضاع مثل هذا الكتاب حتى لم يقع إلينا خبرٌ عنه!

7 - التسديد في شرح التمهيد: (ق/71أ).

8 - مقدمة الأجوبة المستوعبة: (ص39- سليم).

9 - نسبة إلى مدينة المريّة.

10 - سير النبلاء: (18/194- الرسالة).

11 - سير النبلاء: (18/194- الرسالة).

الثالث: تقييد المهمل وتمييز المشكل

ومأً يندرج في هذا الفن مُشكِـل الأسماء والألقاب والكُنَى، ومن أبرز مؤلِّفات المغاربة فيه كتاب «تقييد المهمل وتمييز المشكل»، وإن كان هذا من باب آخر من أبواب النظر في الحديث، إلا أن له تعلقاً بهذا الفن؛ لاندراجة في دقيق مسائل الحديث وعَوِيصها.

وهذا الكتاب ألَّفه الحافظ الناقد أبو علي الغَسَّاني ت498هـ، وقد جعله خاصاً بما يشتهه ويُشكل من أسماء الرواة وكناهم وأنسابهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخلفين، ممَّن ذُكر في «الجامع الصحيح» لمحمَّد بن إسماعيل البخاري، و«المسند الصحيح» لمسلم بن الحجاج النيسابوري¹².

الرابع: الدَّرَّةُ الوسطى في مُشكِـل الموطأ

ألَّفه أبو عبد الله محمد بن خَلَفِ الإلبيري ت537هـ، وهو من أوائل الكتب المتناولة للمُشكِـل العقدي في «الموطأ»، ولم يسبقه أحدٌ إلى هذا، إلا ما كان من صنيع الإمام المتكلم أبي بكر بن فُورَك الأصبهاني في كتابه «مُشكِـل الحديث»¹³، وهو كتاب لم يستوف المباحث المتعلقة بالأحاديث المشكَّلة، فكان جُلُّ نظره إلى جملة من الأحاديث التي وقع الاختلاف في تفسيرها بين المتؤوِّلة، خصوصاً تلك الأحاديث التي يُوهم ظاهرها التشبيه، وغير قليل من تلك الأحاديث ممَّا لم يصحَّ إسنادها، ولم تثبت عند النَّقْدَةِ مُتُونُها.

وقد ظهرت في جملة تلك النكت التي أبداهها الإمام أبو عبد الله الإلبيري براعته وريادته في التنقير عن مواضع الاستشكال، والبحث عن أجوبة لتلك المسائل، وقِسْمٌ كبير من تلك النُّكْتِ لم يسبقه إلى تقييدها مُصَنِّفٌ أو مُؤَلِّفٌ.

قال أبو عبد الله الإلبيري في تَوَطُّيَّتِهِ -مُبِينًا عن قصده من تأليفه هذا-: «لَمَّا رَأَيْتُ أَغْرَاضَ المؤلفين وَأَلْفَيْتُ مَقَاصِدَ الْمُصَنِّفِينَ قَدْ انْقَسَمَتْ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْأَسَانِيدِ، وَاسْتِنْبَاطِ الْفَقْهِ، وَتَفْسِيرِ الْمَذْهَبِ، وَلَمْ أَلَفْ أَحَدًا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَلَفَ فِي الْمُشْكِـلِ مِنْهُ كِتَابًا، وَلَا بَوَّبَ فِيهِ بَابًا، سِوَى الشَّيْخِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ فُورَكِ الْأَصْبَهَانِيِّ -مَنْ أَعْتَمَنَّا-

12 - تقييد المهمل وتمييز المشكل: (1/3-4- غزير).

13 - مشكل الحديث لابن فورك: (ص2- دانيال).

رضي الله عنه، فإنه قَصَدَ منه إلى معنى واحد لم يَزِدْ عليه، ولا خرج عنه إلّا إليه، وهو كُلُّ خَيْرٍ أَوْهَمَ التشبيه لو أُجْري على صريحه، وترك على تصريحه، فعَدَلَ به إلى صحيح التأويل، الثابت بالدليل، الذي يجب حَمْلُهُ عليه، ورَدُّهُ لا محالة إليه؛ براءة من التشبيه، ونزاهة عنه، وحِذَارًا من التجسيم، وفِرَارًا منه، وترك - رحمه الله - ضُرُوبًا من المعاني المتعلقة بالمُشكِـل لم يتكلّم عليها، ولا وجّه مقاصده إليها، وما ذاك منه إلّا حِذَارًا من التطويل في الكلام، وتقريبًا على الأفهام.

وإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ «مُوطًا» مالك بن أنس رضي الله عنه كثيرًا ما يتناولهُ الكَهْلُ والصَّبِي، والراسخُ الزَكِي، بحثتُ فيه على مائة نكتة وخمسين نكتة، كلها مشكلة، تحتاج إلى بيان، وتفتقر إلى برهان، لم يُعَرِّجَ عليها المفسرون، ولا أَمَّهَا المستنبطون، ولا نبّه عليها المؤلفون، ولا أشار إليها المتكلمون، وربما تشبّهت بها ما يُشاكلها من غيره، فأبرزتها لذوي الألباب، وجعلتها نُخْبَةً هذا الكتاب؛ الذي سمّيته «الدُّرَّةُ الوُسْطَى في مُشكِـلِ المُوَطَّأ»، وأضفتُ إليها ما يُشاكلها من المُقَدِّمَاتِ، ويليقُ بها من التشبيهات، ويُفَصِّلُ من الاعتراضات، وجعلتُ النُّكْتَ على التوالي، حتى إذا انقضتْ عِدَّتُهَا، وَفِدَتْ جُمْلَتُهَا؛ رجعتُ إلى الأوّل فالأوّل منها، بالعبرة والمعاني الواضحة الجليلة، اقتداءً بمُفَسِّرِي الغريب من أئمة اللسان وحُفَاطِهِ؛ لأكون فائزًا بِحَظٍّ لم أُسَبِّقْ إليه، ولا وجّه من ذَكَرْتُ من الأئمة نَظَرُهُ إليه، فأقْرَبُ بَعِيدِهِ، وأَوْنَسُ شَرِيدَهُ؛ حتى يَدْنُو من النفوس الفاضلة دُنُو النَّجَا، ويَأْلَفَهُ أَهْلُ الفهم والنُّهى، وَيَرْفُلُ في ثوب البيان فيُكْتَبُ، وتَأْلَفَهُ الأَسْمَاعُ فيُطَلَّبُ، ويَحُلُّ غَنَاؤُهُ فيُكْتَسَبُ، وَيَقْرُبُ فلا يُسْتَسْهَبُ، رَجَوْتُ بذلك الذُّخَرَ عند الحق تعالى والملك الأَجَلَّ المولى).

ومن محاسن هذا الكتاب اشتماله على أسانيد أبي عبد الله الإِلبيري إلى «موطأ» الإمام مالك بن أنس رضوانُ الله عليه، وهي ثلاثة أسانيد:

الإِسْنَادُ الأوّل: قال - رحمه الله -: «رويتُ جميعه بقرطبة في عَقَبِ ذي قعدة سنة سبع وسبعين وأربع مائة، على الشيخ الفقيه المُشَاوَر يومئذ فيها أبي عبد الله مُحَمَّد بن فرج الأموي، المعروف بابن الطَّلّاع، عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مُغيث، المعروف بابن الصَّفَّار، عن أبي عيسى يحيى بن عبد الله، عن عَمِّ أبيه عُبيد الله بن يحيى، عن يحيى بن يحيى، عن مالك بن أنس رضي الله عنه»¹⁴.

الإسناد الثاني: وقال -أيضاً-: «ورويته -أيضاً- بقرطبة في جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانين وأربع مائة على الشيخ الراوية الفقيه؛ أبي علي حُسين بن أحمد الغساني، حدّثني به عن الشيخ الفقيه أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر التّمري رحمه الله، عن أبي عثمان سعيد بن نصر، عن قاسم بن أصبغ، عن محمّد بن وضّاح، عن يحيى بن يحيى، عن مالك»¹⁵.

الإسناد الثالث: وقال -كذلك-: «وحدّثني¹⁶ به -أيضاً- عن الفقيه أبي عبد الله محمّد بن عتّاب، عن أبي القاسم حَلَف بن يحيى وأبي بكر عبد الرحمن بن أحمد التّجيبى، قالاً: حدّثنا أحمد بن مُطَرّف وأحمد بن سعيد، قالاً: أخبرنا عبيد الله بن يحيى، عن أبيه يحيى بن يحيى، عن مالك رضي الله عنه»¹⁷.
ولهذا الكتاب ثلاث نسخ:

الأولى: في مكتبة الإسكوريال، في 150 ورقة، كُتبت بخط أندلسي قديم، مبتورة الطرفين، ولأجل ذلك وهم مُفهرس المكتبة في موضوعها وعنوانها، فظنّها ردّاً على حُجّة الإسلام أبي حامد الغزالي.
والثانية: في المكتبة البريطانية، في سِفْرَيْن؛ ضمن مجموع، عدد أوراقها: (184)، خَطُّها أندلسي، فرغ منها ناسخها في ربيع الآخر من عام 810هـ.
والثالثة: في خزانة خاصّة، كُتبت بخط أندلسي، وورقها قديم جدّاً، صحيحة مقابلة، وعليها أماراتُ الإجازة والإتقان.

الخامس: شرح المُشكِليْن

صنّفه الإمام الحافظ أبو بكر محمّد بن عبد الله بن العربي المعافري ت543هـ، وهو كتابٌ في مشكل القرآن والحديث، وذكر في «قانون التأويل»¹⁸ أن رؤوس مسائله في «الأفعال»، ونَثَرَ فوائده ونوادره في «الأمد الأقصى»¹⁹، و«ترتيب المسالك»²⁰، و«عارضة الأحوذى»²¹.

15 - الدرة الوسطى: (ق168/ب).

16 - أي: أبو علي الغساني.

17 - الدرة الوسطى: (ق168/ب).

18 - قانون التأويل: (ص656 - دار القبلة).

19 - الأمد الأقصى: (1/366، 414، 439، 460، 489 - دار الحديث الكتانية).

20 - المسالك: (2/409).

21 - العارضة: (7/475)، (8/392).

وكتاب «المُشكِـلَيْنِ» في ألف وخمـس مائة ورقة²²، وصنّفه مع كتابه «المتوسط»، وأحال عليه فيه²³، وأرجأ مسائل إلى إتمامها، ممّا يدل على اشتغال القاضي بأكثر من تصنيف في زمن واحد، وغالبُ الظن أن يكون قد فرغ منه قبل عام 521هـ.

وتناول فيه الآيات التي يُوهّم ظاهرها ما لا يجوز في الشرع، من متشابه القرآن ومُشكِله، والآيات التي اختلف المفسرون في توجيهها أو كشف معانيها، ففصّل فيها، وبيّن أصولها، واعتلّ لها، ونظّر في معانيها، وابتدع من عنده وجوهاً في الاستدلال والتوجيه والتعليل، يظهر ذلك في المسائل الشبيهة بها من كتبه الأخرى؛ كـ«المتوسط» و«العارضة» و«الأمـد»، والأغلب أن يكون صنّفه على الأبواب.

وكذلك تتناول الأحاديث المشكّلة، مع اعتناء ببيان صحّة الحديث من ضعفه، وهو المعنى الذي قصّر فيه كثيرٌ من المتكلمين؛ إذ غالبهم غير عارف بمباحث الإسناد وطرق التعليل، ومسالك التصحيح والترجيح، فناسب أن يكون كتابه في مشكل الحديث ظاهراً مرتفعاً عن كُتب سابقيه؛ كابن قتيبة وابن فورك وغيرهما.

السّادس: مشارق الأنوار على صحاح الآثار

واسمه التام: «مشارق الأنوار، على صحاح الآثار، في فتح ما استغلق في كتاب الموطأ وكتاب البخاري وكتاب مسلم، وإيضاح مُبهم لغاتها، وبيان المختلف من أسماء رواتها، وتمييز مُشكِلهـا، وتقييد مُهملهـا»²⁴، للإمام الحافظ الحُجّة أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبّتي ت544هـ، وهو على نهج كتاب أبي علي الغساني، في نظره في الأسماء والأنساب والكُنَى والألفاظ المُشكِلة، وتناول فيه -أيضاً- بعض المشكل العَقدي؛ كمُشكِـل «حَدِيثِ النَّزُولِ»²⁵، وقد طارت شهرته في أقطار الأرض؛ شرقاً وغرباً، حتى قالوا: «لولا عياض لما ذكر المغرب»، وهي كلمة مُجَحِّفة في حق تاريخ العلم بالمغرب، وقد كان فيه من الأعلام من هم شُموس الأنام، وبهجة الأيام.

22 - قانون التأويل: (ص656- دار القبله).

23 - المتوسط في الاعتقاد: (ص139، 163، 176، 217- دار الحديث الكتّانية).

24 - مشارق الأنوار- نسخة خاصّة-: (ق1/أ).

25 - مشارق الأنوار: (9/2- تونس).

السَّابع: مطالع الأنوار على صحائح الآثار

وتأم اسمُه: «مطالع الأنوار، على صحائح الآثار، في فتح ما استغلق من كتاب الموطأ والبخاري ومسلم، وإيضاح مُبهم لغاتها، وبيان المختلف من أسماء رُواتها، وتمييز مُشكلها، وتقييد مُهملها»، ثمَّ أَلَفه الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف؛ شُهرَ بابن قُرُقُول ت569هـ.

وهو على نهج القاضي عياض في مشارقه، واقتبس منه كثيراً، وعَوَّل عليه في كتابه كله، حتى إن تَقْدِمَتَه مقتبسةٌ من مقدمة القاضي عياض²⁶، فانتقد في كتابه من انتقده عياض، وسار بسيره، واستنار بَنُورِه، ولم يُجْلِه من تفسير وإيضاح للمُشكِـل العَقْدِي؛ كحديثه عن تفسير «النور»²⁷، و«الإصبع»²⁸، و«القدم»²⁹، وغيرها من العبارات الواردة في الأحاديث، ممَّا يندرج أغلبها في مُسمَّى الصفات الخبرية.

الثامن: تنبيه الأفهام في مُشكِـل حديث النبي عليه السَّلام

أَلَفه الإمام عبد الجليل بن موسى القَصْرِي ت608هـ، ذَكَرَهُ له ابن الأَبَّار في ترجمته له³⁰، وهو مُخْتَصٌّ بالمُشكِـل العَقْدِي الوارد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذَكَرَ أبو مُحَمَّد في طليعته السبب الباعث على التأليف فيه، وقد حَقَّق الكتابُ في رسالة جامعية بالملكة المغربية.

التاسع: المفهم لما أَشْكَـل من تلخيص كتاب مسلم

أَلَفه الفقيه العلامة الإمام أبو العبَّاس أحمد بن عمر القرطبي ت656هـ، وهو وإن كان شرحاً على اختصاره لصحيح مسلم، إلَّا أنه نَصَّ في تَقْدِمَةِ كتابه على تناوله لِمُشكِـل حديثه، قال -رحمه الله-: «فلَمَّا حصل من تلخيص كتاب مسلم وترتيبه المأمول، وسَهَّل إلى حفظه وتحصيله الوصول، رأينا أن نُكْمِل فائدته للطالِبين، ونُسَهِّل السبيل إليه على الباحثين؛ بشرح غريبه، والتنبيه على نُكَّتٍ من إعرابه، وعلى وجوه الاستدلال بأحاديثه، وإيضاح مُشكلاته، حسب تبويبه، وعلى مساق ترتيبه»³¹.

26 - مطالع الأنوار: (145/1 - قطر).

27 - مطالع الأنوار: (233/4 - قطر).

28 - مطالع الأنوار: (326/1 - قطر).

29 - مطالع الأنوار: (84/2 - قطر).

30 - التكملة: (275/3 - بشار).

31 - المفهم لما أَشْكَـل من تلخيص كتاب مسلم: (84-83/1).

العاشر: منهاج العوارف إلى رُوح المعارف

أَلَّفَه الإمام ابن بَزِيزَةَ التونسي ت 662هـ، وذكر فيه الآيات والأحاديث المشكَّلة، وأحال عليه في كتابه «الإسعاد في شرح الرشاد»³²، وكان اعتناؤه بالمشكل العقدي على طريقة الإمام أبي بكر بن فُورَك الأصبهاني ت 406هـ.

الحادي عشر: إيضاح السبيل إلى مناحي التأويل

وهو مختصر الكتاب السَّابِق، اختصره مؤلفه ابن بَزِيزَةَ، ذكره في «الإسعاد»³³، ومنه نسخة في قريب من ثلاثين ورقة، محفوظة بدار الكتب المصرية.

الثاني عشر: تأويل مُشكلات البخاري

صَنَّفَه الإمام النظَّار أبو عبد الله مُحَمَّد بن يوسف السَّنُوسِي ت 895هـ، وذكر فيه ما استشكل من أحاديث «الجامع الصحيح» لمُحَمَّد بن سماعيل البخاري، وهو منشور في جزء وسط.

الثالث عشر: الجامع بين الأحاديث التي ظاهرها التعارض

صَنَّفَه الفقيه سعيد بن إبراهيم المحجوز التونسي ت 1119هـ³⁴، وهو من علماء الزيتونة، وأحد المتخرجين منها، معدود في طبقات المالكيَّة، وله شرح على «الموطأ»³⁵.

الرابع عشر: شرح مشكل البخاري

وهو من كتب الفقيه مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن إبراهيم العُثماني ت 1167هـ، منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالرباط³⁶، والفقيه ابن إبراهيم العُثماني من رجال «المعسول»؛ الذين ترجمهم الفقيه العلامة مُحَمَّد المختار السُّوسِي³⁷.

تتميم:

هذه هي المؤلفات التي ظفرت بها عند المغاربة في خصوص هذا الفن، ومن العلماء من كان تناوُلُه للمُشكَل ضمن كتبه أو رسائله، من غير أن يجعل ذلك في كتاب مفرد، كالقاضي عياض في

32 - الإسعاد: (ص 363).

33 - نفسه.

34 - التعارض في الحديث: (ص 36).

35 - نفسه.

36 - نفس المصدر.

37 - نفسه.

شرحه على صحيح مسلم، والمازري في إملائه عليه، وابن العربي في ترتيب المسالك³⁸، ومن أهل العلم من خَصَّ حديثاً مما استشكله البعض بتأليف، كما صنع الإمام ابن العربي في رسالته «الكلام على مُشكل حديث السُّبُحات»، وقد عُثِر عليه حديثاً، ويُحقّق بالجزائر، وكما فعل الفقيه العلامة سيّدي محمّد بن المديني كنون تـ 1302هـ في تأليفه في حديث «لا عدوى ولا طيرة»، وقد طُبِع قديماً على الحجر.

(4) دلائل ريادة المغاربة في تأليفهم في مُشكل الحديث

وهذه المؤلفات التي ذكرتها شاهدة على نبوغ المغاربة في هذا الفن، ودالة على اقتدارهم وارتفاعهم، وتميّزت بجملة خصائص يمكن إجمالها في عدّة أمور:

أولها: اعتناؤهم بمُشكل أحاديث «الموطأ» دون من سواهم؛ وذلك لجلالة مؤلّفه، ومكانة مؤلّفه، فهو أصل الصحيح، بل صحيح الصحيح، فالإمام مالك -رضوان الله عليه- أوّل شارع للمؤلفين في هذا الفن، وعلى نهجه سار أئمة الحديث.

ثانيها: اعتناؤهم بمُشكل أحاديث الصحيحين، وهي خصلة ميّزتهم عن غيرهم، وإن وُجد من اعتنى من المشاركة بذلك، إلا أنهم لم يبلغوا قدر المغاربة في تأليفهم وتحريراتهم وأنظارهم.

ثالثها: اعتناؤهم بالمُشكل العقدي الذي به يُحفظ الدين، وتسلم من خلاله عقائد المسلمين؛ تنزيهاً للشريعة ورفعةً لها عن مطاعن الملحدين.

رابعها: تتابع المؤلفين في هذا الفن خلفاً عن سلف؛ إذ لا يخلو عصر من مُتصّد لبيان المُشكل، وتحرير المُعضل.

خامسها: تنوع مؤلفات المغاربة في هذا الفن؛ بين كتاب مفرد، أو رسالة خاصة، أو مبحث يزيل الإشكال عن المسألة المبحوثة.

سادسها: تطرق المؤلفين للمباحث الإسنادية والقواعد التعليلية في إبانتهن عن هذا المُشكل، مع جُنُوح إلى الحديث الصحيح، وتمهّل في تفهمه، وتبصّر في درك معانيه.

38 - ترتيب المسالك: (466/3).

تكميل:

هذا بعضُ ما ظهر لي بخصوص هذا الموضوع، وهو محتاج إلى مزيد بحث وتنقيب، وكل هذا يندرج ضمن التعريف بتراث المغرب في الحديث وعلومه، وليكون بحق دار فقه وحديث، وقد عرضتُ جملة من الكتب التي ما تزال مخطوطة، تنتظر من يعتني بها من علماء هذا البلد الأمين، والله الموفق، والحمدُ لله رب العالمين.

ديوان العدد

سَلِمَتْ لَنَا يَا حَبِيبَ الْقُلُوبِ!

الشاعر: محمد البلغمي

وباسمك رَتَّلْتَ أَنْغَامِيَّةً!
فَلَا نَسَتْ بَرَقَتَهُ الْقَافِيَّةُ
تَضَوَّعَ كَالنَّسَمَةِ النَّادِيَّةُ!
وَجَالَ بِرُوحِي وَأَعْمَاقِيَّةُ
وَلَقَنْتَ سِرَّهُ أَبْنَائِيَّةُ!
فَأَرْسَلْتَهُ نَغْمَةً شَادِيَّةُ
وَتَفَخَّرَ بِرَبِّ الْأَسْرَةِ الْعَالِيَّةُ
وَفَرَّغَ مِنَ الدُّوْحَةِ النَّامِيَّةُ!
وَأَبْدَيْتَ مِنْ هِمَّةٍ سَامِيَّةُ
وَقَدَّرَ سَمًا فَوْقَ أَوْ صَافِيَّةُ!
كَمَنْ يَحْصِرُ الْبَحْرَ فِي سَاقِيَّةُ
وَهَذَا شَوْاهِدُهَا بِادِيَّةُ؟
هَذَا فِي الْحَوَاضِرِ .. وَالْبَادِيَّةُ
وَكُنْتَ لَهَا الْمَقْلَّةُ الرَّاعِيَّةُ!
وَأَحْيَيْتَ أَجَادَهَا الْمَاضِيَّةُ
وَأَدْنَيْتَ أَمَالَهَا الْقَاصِيَّةُ!
فَأَضَحَّتْ دُنَاهُمْ بِكُمْ زَاهِيَّةُ
وَكُنْتَ مَنَارَتَهَا الْهَادِيَّةُ!
وَحَزَّتْ بِهَا الثَّقَلَةُ الْغَالِيَّةُ
وَمِنْ شَعْبٍ دَوْلَتَنَا الرَّاقِيَّةُ

بِمَدْحِكَ حَلَّيْتُ أَشْعَارِيَّةُ
وَمِنْ طَيْبِ خُلُقِكَ صَغَتِ الْمَعَانِي
أَمْوَلَايَ .. مِنْي عَلَيْكَ السَّلَامُ
وَحَبُّ لَكُمْ قَدْ نَمَا بِفُؤَادِي
نَهَلْتُ أَفَاقِيَّةُ مِنْ جَدُودِي
وَمِنْ وَحْيِ عَرْشِكَ صَغَتِ الْبَيَانُ
تَشِيدُ بِكُمْ ... يَا حَفِيدَ الرَّسُولِ
فَأَنْتَ مِنْ " الْجَد " نُورٌ مُضِيَّةُ
فَكَمْ حَزَّتْ مِنْ شَرَفٍ وَنُبُوغٍ
وَمِنْ كَرَمٍ كَالنَّدَى إِنْ هَمِي
إِذَا رَمَتْ بِالشَّعْرِ حَصْرًا لَهُ
وَكَيْفَ سَتَخْفَى مَوَاقِفُكُمْ
تُحَدِّثُ عَنْكُمْ بِكُلِّ فَخَارٍ
حَفِظْتَ الْبِلَادَ مِنَ الطَّامَعِينَ
وَصُنْتَ مَآثِرَهَا الْخَالِدَاتِ
وَمَهَّدْتَ لِلنَّشْءِ دَرَبَ النِّجَاحِ
وَشَجَعْتَ أُولِيَ النَّهْيِ وَالْبَيَانِ
وَنَافَحْتَ عَنْ شِرْعَةِ الْمَصْطَفَى
فَلَا غَرَوْا إِنْ بَارَكْتَكَ الْمَعَالِي
وَنَلْتَ الرِّضَا مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ

لأنك حققت حلم أهلك
وصحراؤنا مهتد أجدادنا
ونحيابوحدتنا في التحام
فياسيدي يابن خير الوري
مُحَمَّدُ السَّادِسُ المرتضى —
سَلِمَتْ لَنَا يَا حَبِيبَ الْقُلُوبِ
وأبقاك ربِّي مناراً لنا
وألبسك الله طول الحياة
وعاش الولي لعهدك في
بقدرٍ مرور الليالي، وما

وجسَّمت سيرته الذاتية!
سنمهرها بالدم القانيه!
وعقبى البغاة .. إلى الهاوية
ويانفح روضته الزاكية!
وذو الرأي، والفكرة الواعية!
ففيك سلامة أوطانیه
تُنير ليالينا الداجية
ثياب السلامة والعافية!
رُقِيٍّ ، وفي نعمة باقية
أضاءت كواكبها السارية!

مَوْلَايَ

الشاعرة: فاطمة الوزاني الشاهدي

وَتَبَاشَرْتُ شَمْسُ بِفَضْلِ تَنْعَمُ
مِنْ عَبَقِ آلِ الْمُصْطَفَى تَنْتَسِمُ
مِنْهَا يَغَارُ الْيَمْنُ إِذْ تَبَسَّسُمُ
شَلَالِ خَيْرٍ لِلْوَرَى بِهِ تُكْرَمُ
حَمَلْتُ نَسَائِمُهُمْ شُهُودُ تَعْلُمُ
أَفْعَالُ طَائِيٍّ وَأَنْتُمْ أَكْرَمُ
لَمْتُ أَرَامِلَ وَالْكِبَارُ تَأَقْلَمُوا
فِي غُرْبَةٍ أَوْ وَحْدَةٍ تَنْفَقَا قَمُ
كَثُرَ الرِّوَاغُ وَخَيْرُهَا يَتَرَاكُمُ
طَرَقَتْ رَحَابًا شَأْمًا يُتَعَوَّمُ
وَطُفُولَةٌ سَعِدَتْ وَأُسِّسَ مَيْتَمُ
وَبِكُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسَامَتْ يَوْسَمُ
عَنْ تَرْكِ بَيْتِ الزَّوْجِ كَانَتْ تُرْغَمُ
قَدْ رَاحَ عَهْدُ تَسَيَّبٍ أَوْ مَظْلَمُ
مَا صَانَ حَقًّا لِلنِّسَاءِ بِهِ تَغْنَمُ
مِنْ زِيَجَةٍ كَانَتْ سَرِيعًا تُخْتَمُ
فَالشُّغْلُ فِي صِغَرٍ لِذَاكَ يُجْرَمُ
فِي قَرِيَةٍ أَوْ فِي الْمَدِينَةِ مُحْكَمُ
جَذَبَتْ صَغِيرَاتٍ بِصَدَقٍ تُفَعَّمُ
وَبِعِلْمِهَا كُلِّ النِّسَاءِ تُتَكْرَمُ
لَسْلِيلُ مُلْكٍ شَامِخٍ يَتَعَاظَمُ
طَابَ الثَّرَى وَالذِّكْرُ مِنْهُ مُنْعَمُ
يَشْكُو الْوَنَى وَلِكَثْرَةِ يَتَظَلَّمُ

مَوْلَايَ تَفَتَّرَ الْبُدُورُ وَتَبَسَّمُ
وَنَدَتْ وَرُودُ ضُمَحَتْ وَأَرِيحُهَا
وَاسْتَبَشَرَ الْوَرْدُ الْحُجْبُ بَطْلَعَةٍ
وَأَيْدِيكُمْ بَيْضَاءُ مِنْ بَذْلِ هَمَتِ
فَاحِ النَّدَى وَالْجُودُ قَبْلَ رِكَابِكُمْ
ذَكَّرُوا صَنِيعًا بَاهِرًا وَفِعَالِكُمْ
كَمْ مِنْ مَرَاكِزٍ أَنْشِئَتْ فِي عَهْدِكُمْ
وَشُيُوخُنَا وَأَدْوَا الْفِرَاقَ بِمُؤْنِسِ
كَمْ مِنْ مَشَارِعَ فِي الْقَرَى قَدْ أَنْشِئَتْ
حَتَّى الْمَدِينَةَ لَمْ تَفُوتْ فُرْصَةً
فِي عَهْدِكُمْ عَزُّ عَلَا مُتَطَاوِلًا
هُوَ عَهْدُكُمْ بِالْعَدْلِ زَاهٍ مُشْرِقُ
وَبِفَضْلِكُمْ عَزَّتْ نِسَاءُ طَالَمَا
وَعَدَا التَّعَدُّدُ بِالرَّخْصِ جَائِزَا
فَالشَّرْعُ وَالْقَانُونُ طَبَّقَ مِنْهُمَا
كَمْ مِنْ صَبَايَا قَاصِرَاتٍ أَفْلَتَتْ
وَالصَّبِيَّةُ الْأَغْضَاضُ مِنْ هَذِرٍ حُمُوا
وَالْعِلْمُ يُسَرُّ مَا لِذَاكَ عَائِقُ
وَلَرُبَّ دُورٍ لِلْبَنِيَّةِ شَيْدَتْ
مَا عَادَ هَذِرٌ عَائِقًا أَوْ مَا نَعَا
الْأَرْضُ قَاطِبَةً تَقْرُبُ بَأَنَّاكُمْ
وَلَكُّكُمْ مِنَ الْعُظَمَاءِ فَذُ الْوَالِدُ
لَهُ مِنْ مَكَارِمِ مَا الْيَرَاغُ حَيَاهَا

بِمَسِيرَةِ خَضِرَاءَ عَزَّ نَظِيرُهَا
بَهَرَتْ مَآثِرُهَا الْمُلُوكَ فَأَيَّقُوا
فَعَدُّوا وَكُلَّ لِلْمَشُورَةِ طَالِبُ
كُلِّ الْقَضَايَا الشَّائِكَاتِ أَلَانَهَا
هَذَا الشَّعْعَارُ عَدَالَةٌ وَتَسَامُحٌ
وَلَقَدْ وَرِثْتُمْ عَنْهُ عِلْمًا وَارِفًا
حَتَّى الدُّرُوسُ تَوَاصَلَتْ بِرِعَايَةٍ
دَرْسٌ فَآخِرٌ فَالْوُفُودُ تَقَاطَرَتْ
إِفْرِيقًا قَدْ أَنْقَذَتْ بِمَشَارِعِ
وَالنَّازِحُونَ جَمِيعُهُمْ قَدْ كَرَّمُوا
مَا مِنْ مُلِمَاتٍ تَعَاظَمَ شَأْنُهَا
فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ اللَّجُوءُ إِلَيْكُمْ
بِسَدَادِ رَأْيٍ فِي الْأُمُورِ وَحِكْمَةٍ
فِي الْحَزْمِ يَا تَارِيخُ هَلْ لَهُ مُشَبِّهٌ؟
فِي الْعِلْمِ وَالِدِّينِ الْقَوِيمِ مَلِيكُنَا
فِي الْبَذْلِ وَالْإِنْعَامِ صَيِّتُهُ قَدْ عَلَا
مَلِكٌ مَهِيْبٌ فِي الْمَحَافِلِ كُلِّهَا
مُولَايَ مِنْ حُبِّ تَشَبُّعِ خَافِقُ
تَبَقُّوْنَ دُخْرًا لِلْبِلَادِ بِعِزِّكُمْ
وَلِيَحْفَظِ الْمَوْلَى وَرِثَ عُهُودِكُمْ

قَدْ قَادَهَا مَلِكٌ حَكِيمٌ مُلْهَمٌ
أَلَّا مَرَاءَ هُوَ الْحَكِيمُ وَأَقْسَمُوا
يَرْجُوا النَّصِيحَةَ أَوْ لَهَا يَتَوَسَّسُ
بِشَعَارِهِ: 'الْوَطَنُ الْغُفُورُ لِيَرْحَمُ'
وَقَطِيعَةٌ مَعَ كُلِّ مَا يَتَصَرَّمُ
وَمَكَارِمًا فَضْلًا بَدَتْ تَتَرَاكُمُ
فِي شَهْرِ صَوْمٍ فَالْخُطَى تَتَرَسَّمُ
كَمْ مِنْ فَوَائِدَ كُبْرِيَا تَغْنَمُ
إِذْ كَانَ فَقْرٌ كَثِيرٌهَا يَتَجَسَّمُ
بَاقِيَامَةٍ أَوْ فَالْهُوَيَّةُ مُحَلَّمُ
إِلَّا عَدَتْ أَمْرًا طَافِيْفًا يُحْسَمُ
إِنَّ السِّيَاسَةَ عِنْدَكُمْ تُتَعَلَّمُ
أَهْنَاكَ عَقْلٌ فِي السِّيَاسَةِ أَحْلَمُ
فِي الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ إِنَّهُ أَكْرَمُ
حَامِي الْحَمَى ذَاكَ الْحَكِيمُ الْأَقْوَمُ
مِنْ خَيْرِهِ الْفَيَّاضِ كُلُّ يَنْعَمُ
فَبِهِ الْعُرُوبَةُ حَبْلُهَا لَا يُفْصَمُ
يَدْعُو وَيَسْأَلُ رَبَّنَا أَنْ تَسْلَمُوا
نَحْيَى كِرَامًا وَالصُّفُوفُ تَنْظَمُ
وَالْأُسْرَةُ الْمَفْضَالُ إِنَّهُ أَعْظَمُ

فهرس العدد:

افتاحفة.....7

مقالات العدد

البفة الشرفة أساس قفام الوحدة الوطنفة

ذ. حسن عزوزف 11

إمارة المؤمنف وتجلفاتها فف الماضف والحاضر

ذ. أبو بكر دو كورف 25

إمارة المؤمنف ورعاة الشؤون الدفنف لمغاربة المهجر فف عهد الحماية " رحلة السلطان مولاف
فوسف لتدشفن مسجدا بارفس سنة 1926م "

ذ. محمد الأنسلف 33

إمارة المؤمنف ومظاهر الأمن الروحف

د. فرفد الجمالف 49

من جهود أمير المؤمنين جلال الملك محمد السادس في استتباب الأمن الروحي بالقارة
الإفريقية

55 ذ. عبد العلي بلامين

مؤسسة إمارة المؤمنين وعلاقتها برعاياها المغاربة

67 ذ. محمد بن عبد الجليل

من حالة الاستثناء إلى الإجماع الوطني

77 ذ. عليّ حَسَنِي

إمارة المؤمنين صمام الأمان ضد التطرف الديني في إفريقيا وظائفها ودلالاتها الرمزية

95 ذة. ماجدة كريمي

دور البعد الديني في العلاقات الإفريقية : المعالم والآفاق

101 د. عبد الكريم هاني

مقالات داعمة

صلة القواعد الفقهية والأصولية بالأشباه والنظائر والفروق

119 د. إدريس الزعري المباركي

ريادة المغاربة في التأليف في عِلْمِ مُشْكِلِ الحديث: تعريف وتوصيف

129 د. عبد الله التَّوْرَاتِي

ديوان العدد

سَلِمَتْ لَنَا يَا حَبِيبَ الْقُلُوبِ!

الشاعر: محمد البلغمي 143

مَوْلَايَ

الشاعرة: فاطمة الوزاني الشاهدي 145

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

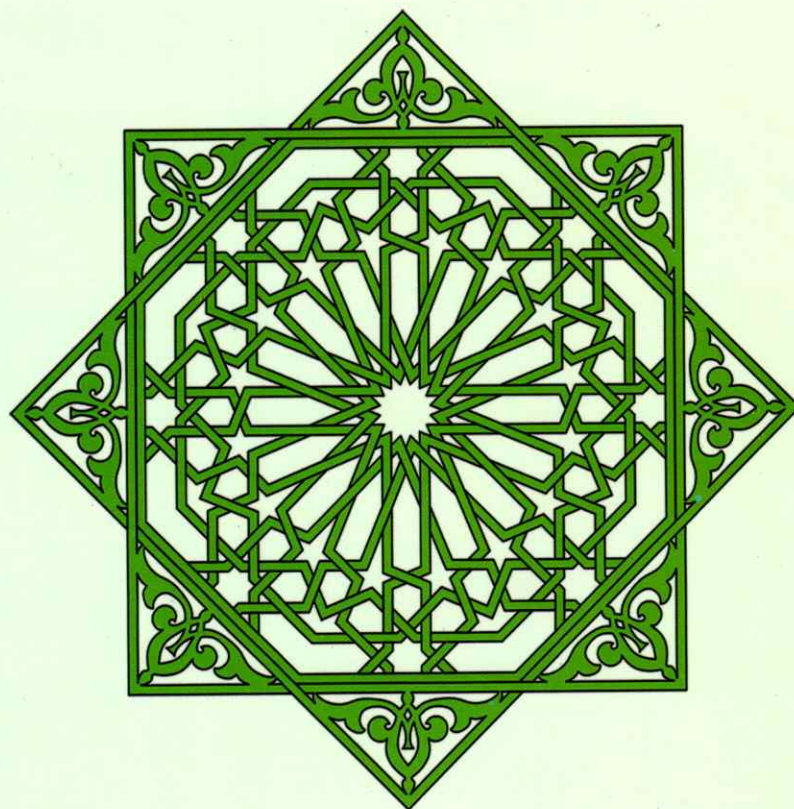
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاورين الآتيين:

1. صورة الملك والشعب.
2. إمارة المؤمنين والبعد الإفريقي.





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية